الهناء بلا كيمياء
للآباء والأبناء

كلمات لعلاج الإدمان .. فسحًا لطريق الإيمان

يكتبها: محمد شعلان

الناشر
المؤلف : ٤٤ شارع القصر العينى ت ٣٥٥١١٧٣
القاهرة ١٩٨٦ م

شكر وإهداء

الحمد لله ربى الحمد لله .

حمد من لا يحمد سواه .

حبيتنى فى كل خلقك يا آله .

. . . فيمن وهبته لى فى المهد زكياً .

فعلمنى كبيراً مثلما علمته صبياً .

. . . وفيمن هديته بعد ضلالة .

فحملتنى بفدائك له رسالة .

. . وفيمن تركته ضالا فى عميان .

فى جنة أو إجرام أو إدمان .

. . . وحتى فيمن رجونى معه سفاهة .

بلا فطنة أو كياسة أو بداهة .

هكذا ربى خلقتنا .

كل الأصناف .

لهم جميعاً أهده .

داء وخلاص .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بدأ هذا الكتاب منذ عشر سنوات . ولكنه وضع على الرف . إلى أن جاءت موجة إنشغال الرأى العام بالقضية . فكتب من جديد دون الرجوع إلى القديم . فشمل جزئين .

الأول عن « الحناء بلا كيميا . للآباء والأبناء . كلمات لعلاج الادمان فسحا لطريق الإيمان » .

والثانى عن « الهوية الاجتماعية » .

وكانت الحكمة من هذا الاتساع فى تناول الموضوع بدءا من الجوانب الطبية والنفسية للإدمان إلى قضايا المجتمع فى بحثه عن هوية وسط أزمته الحضارية الراهنة التى تقوم على دعامتين .

أولا : أن مشكلة الإدمان جزء من كل ولا يمكن فهمها دون فهم الاطار الاجتماعى والحضارى التى توجد فيه .

ثانياً : أن الضجة التى أثيرت مؤخراً حول المشكلة مبالغ فيها ، وتكاد تكون مفتعلة ، مثل الضجة التى أثيرت من قبلها حول الاغتصاب ؛ والفساد والبهائية ومن بعدها الإرهاب ، ومدعى النبوة . وهى قضايا فرعية وظيفية الضجة حولها شغل المجتمع بفروع القضايا خوفاً من مواجهة جذورها وتعميته عن حقيقة مشاكله .

ولذلك يرى المؤلف أن التعرض لمشكلة الإدمان لابد له من النظر إلى غيرها من المشاكل توطئة لرؤية الجذور المشتركة لها . فالناس تلجأ إلى تغييب وعيها بواسطة الكيمياء (المخدرات) من حدة ما تتعرض له من

مؤثرات بيئية تعجز عن التكيف معها أو تعديلها وتغييرها . فمن لا يستطيع تغيير الواقع المؤلم بغير وعيه به .

لذلك جاء الباب الثانى يجمع عدة مقالات قصيرة حول قضايا المجتمع الذى يبحث عن هوية . فشمل موضوعات مختلفة ولكن متصلة عند هذا البحث .

فهناك مجموعة تبدأ بالتساؤل عن دور الدين فى تطور النفس البشرية أسوة بالمجتمع وأهمية الانتماء الوطنى فى ظل قيم دينية وروحية عليا . الناس تصبر على ما هى فيه من عنا. الدنيا إيماناً بجزاء فى الآخرة . والقيم الروحية التى جاءت بها رسالة الإسلام هى ختام وتتويج وليست نفيا لما سبقتها فى غيرها من الرسالات والأنبياء « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » (٧٨ غافر) والرسول الكريم آمن بما أنزل الله من رسل ولم يفرق بين أحد من رسله (معنى ٢٨٥ البقرة) . ومن هنا كانت أهمية الحوار الدينى داخل كل دين وبين الأديان وبعضها بغية الوصول إلى تفهم مستنير لجوهر الدين لا متعصبا ولا متزمت أو منغلقا . فالإيمان والتوحيد وأخوة البشر وغيرها من الأهداف السامية هى مراد الأديان .

ان مصر تحمل أمانة لأنها تاريخياً منبع الحضارة ومنبع القيم الروحية الدينية ومنبع التوحيد وبصفتها فى الحاضر صاحبة المبادرة سواء فى بعث الروح الوطنية لدى الشعوب المستضعفة أو الروح القومية عبر الحدود الوطنية أو الحضارية الأممية الإسلامية الهادفة لتحرير الإنسان . مصر التى بادرت بالصحوة الوطنية بتجاوز العصبيات فى ظل وحدة وطنية وبادرت بحلم الوحدة العربية بتجاوز الوطنيات فى ظل وحدة عربية وبادرت بحلم

السلام العالمى بعد عبور حصون الحرب مقاتلة والقفز عبر العداء مسالمة حاملة قيم الروح فوق المادة . أنه قدر مصر ومسئوليتها . أن تحمل القيم الروحية فى ظل وطنية مصرية وقومية عربية وأممية إسلامية وأن تنجب فكراً مستنيراً يضيء الطريق لمسيرة الإنسانية . مصر . . رغم — أو ربما بسبب — معاناتها ومشاكلها وديونها وأعدائها الذين يحاربونها وأصدقائها الذين يخشونها . . هى حاملة الأمانة .

خواطر مدمن فى المدينة

١ — المهبطات

أنا من سكان القاهرة . أوقل من سكان المدينة . فكل مدينة تصبو أن تكون قاهرة مصغرة والقاهرة تلهث فى محاكاة من سبقتها من مدن فى إمجاه المدنية . ولكن كما هو حال كل مقلد فكثيراً ما يبدأ التقليد بمحاكاة المظهر قبل الجوهر والسطحى اليسير قبل العميق العسير ، المدنية جاءت بالمبانى العالية والتكدس السكانى والازدحام فالاختناق . تزدحم رقعة الأرض بما لا تحتمل . بل ينتقل الازدحام إلى السماء فتمتلىء هذه بالملوثات من عوادم المحروقات السامة الخانقة والتراب والضوضاء ويتسابق الجميع سعياً للانتقال من نقطة إلى نقطة فى المدينة ويزداد الاختناق وتوتر الأعصاب . وتدق القلوب . وترتفع ضغوط الدم الذى يتشبع بالافرازات الكيميائية من الجسم ذاته . فالضغوط الخارجية تستدعى الاستعداد الداخلى لمواجهة خطر ما . ولكنه خطر وهمى واستعداد منفعل لفعل لا يفعل . ويزداد التوتر وتنهك أعضاء الجسد وهى تستعد وتشحن بلا تفريغ أو تعبير .

ثم أخذت ببعض ما جاءت به المدنية من أدوات لخفض التوتر . المواد الكيميائية التى تخفض التوتر وتغير الوعى به . فاصطنع هدوء أزيل به التوتر ، أو بهجة أزيل بها الكآبة ، أو طمأنينة أزيل بها الخوف .

بدأت المدينة بتطوير ما هو طبيعى . فصار عصير العنب نبيذاً وماء الشعير بيرة وغير ذلك من مشروبات تتخمر أو تتقطر فتسكر . وتنوعت الأصناف والمذاقات والألوان . وصارت الأعشاب خلاصات تؤخذ عن طريق الفم أو الأنف أو حتى الحقن — الأفيون ومشتقاته (وعلى الأخص الهيروين) الحشيش ، الكوكايين . كانت هذه المواد

معروفة منذ القدم . فانتشر بعضها قبل المدنية . ولكن لما جاءت المدنية وما صاحبها من ضغوط صار الانتشار وباءاً . وصار الاستهلاك الترفيهي إستهلاكاً تدميرياً يفوق حاجة المرء ، ويتعداها لتتحول المادة المؤثرة في الوعي إلى مادة مغيبة له وليتحول العقار إلى سم ، والعلاج إلى مرض . وهكذا ظهرت مع المدنية ظاهرة الإدمان . وتركزت العيون على الإدمان لتلك العقاقير التي جمعت تحت إسم « المخدرات » وصار مستهلكوها « مدمنين » يعاملون بالازدراء . ازدراء يأخذ إسم المرض تارة والجريمة تارة أخرى . وأفرط الناس في الإدانة وكأنهم يزيحون عن أنفسهم تهمة ويقولون . بل أن هؤلاء هم المدمنون . أما نحن فؤمنون . وأعدوا ما استطاعوا من جند لمحاربتهم .

ولكن رغبة الإنسان في تخفيض توتره بطريق سهل إستمرت ملحة . واخترع الإنسان العقاقير المهدئة للأعصاب والميسرة للنوم ، والعقاقير المنبهة للأعصاب والباعثة على اليقظة والانتباه . وسميت هذه العقاقير الجديدة علاج . وصفه الأطباء وصرفه الصيادلة . وسرعان ما اكتشف الناس الخدعة . فهذه العقاقير العلاجية الجديدة ليست إلا غلاف جديد للمواد القديمة ، ونوع آخر من أنواع « المخدرات » . وانتشر إستخدامها خارج عيادات الأطباء وارفف الصيادلة . وتحولت هي الأخرى من عقاقير إلى سموم . ودخلت ضمن الوباء . ولكن في هذه المرة ازدادت الحرب تعقيداً . فمنتج السموم لم يعد مزارعاً في العالم الثالث الفقير يزرع الخشخاش (مصدر الأفيون ومشتقاته) أو القنب (مصدر الحشيش) أو الكوكا (مصدر الكوكايين) وغيرها . ولكن المنتج الآن هو ذات المدنية بمصانعها الكيميائية وشركاتها للأدوية . وصارت مصالح إقتصادية تدر من الأرباح ما لا يفوقه ربحاً ألا تجارة السموم الحديدية وهي أسلحة الحرب المدمرة . نشأت مصالح داخل إطار المدنية تتعارض مع ما تدعيه المدنية . بل نشأت

مصالح جديدة ترتبط بدات الحرب الدائرة بين المنتج والمستهلك . نشأت أجهزة بأكلها داخل أجهزة الأمن والقانون تكاد تتفرغ لهذه الحرب ضد المخدرات . أجهزة تمنع وبمثل ما تمنع تسمح . وارتبطت أطراف الصراع — المنتج والمروج والمانع والمستهلك — فى اطار زواج غير مقدس. فالجميع صاروا أصحاب مصلحة فى وجود الظاهرة — ظاهرة الادمان وبالذات إدمان « المخدرات » .

هكذا وجدت أنا المدمن من المدينة . ضحية لما سببته المدنية من ضغوط وتوتر ثم ضحية للمرة الثانية لما خلقته المدنية من مواد كيميائية لتخفيف ذلك التوتر ، ثم مرة ثالثة للقوانين المرتبطة بالظاهرة .

الضوضاء حولى من كل جانب . أجهزة تكبير الصوت وأجهزة المذياع والتلفاز (التليفزيون) . وآلات التنبيه وأصوات المحركات والورش والمصانع . والهواء فقد نقاوه . وصارت مدينتى غارقة فى سحابة ضخمة من السموم والأتربة . بل وصلت السموم إلى غذائى اليومى ، وحتى شرابى . لم تعد الأطعمة هى الأطعمة ولا المياه هى المياه . ياويحتاه ! السموم تدخلنى من كل جانب ، تنهشنى كالعقارب وداويت الداء بالداء ، وشفيت العضال بالعضال . هكذا عرفت الضلال ، وفقدت راحة البال . وتزعزع فى الإيمان .

لا أنام الليل ولا الظهر أرتاح . أتقلب واعبث وأبحث عما يشغلنى ويفرغ من التوتر . أبحث عن السيجارة أو فنجان القهوة أو الشاى أو زجاجة مياه غازية ، ليست كلها بمغذية . شىء أضعه فى فمى كالطفل إذا لم يجد ثدى ، فيستخدم إصبعا أو أداة يضعها فى فمه . هو يمصمص فى « البزازة » وأنا أتباهى بالسيجارة أو « بالبيبة » لزيادة « الشياكة » .

أريد ما يخفف توترى . أريده كالطفل فوراً وفى فمى شىء أبلعه أو أمتصه أو أحقنه . يدخل فى دمى بسرعة ، بل فجأة . أنها هذه النشوة المصاحبة للنقلة الفورية من حالة وعى إلى حالة وعى مغايرة . أريد ما أريد الآن . لا أتحمل الانتظار . لا أعرف الصبر . فإذا لم أحصل على ما أريد صرخت أو بكيت أو هددت وقطعت شعرى أو ملابسى ، أو ربما أعتديت على من حرمنى وخاصة إذا كان هو من أغرانى . أريده فوراً وأريد المزيد . أريد وأريد وأريد . ولا يمنعنى الوعيد .

القهوة فاقدة المفعول . كانت توقظنى فصارت عادة . صارت تعبيراً عن كرم الضيافة . كانت كيفاً . صارت جزءا من الوجبة ، أو أشربها بين الوجبات . أو لعل كثرتها توقظنى . فأنى أصحو من النوم منهكا . كيف أستقبل يوماً حافلا . كيف أستعد لمعارك بالأمس أنهكتنى وهزمتنى . فنجال يتلوه فنجال . وأعصابى تتوتر . وعيونى لا يغمض لها جفن . تتلفت حولى منتبهة . اليقظة تصاحبنى إلى الفراش وأنا فى حالة إستعداد لمواجهة عدو يصارعنى . كيف أنام ؟ الخطر يداهمنى .

أتقلب على فراشى . مرة ذات اليمين وأخرى ذات اليسار . أنكفىء على وجهى ثم أوليه للسماء . أدعو ربى طالباً الراحة . الأفكار تتطاير فى عقلى . وقلبى يدق . ألهث أنهج ، أتأوه ، أكاد أصرخ . لم لا آخذ قرصاً يخامر وعيى . أو خمر أشربه . الخمر سريع المفعول . حرام هو ؟ ولكنى آخذه كدواء . علاج لشدة الأعصاب . . فليغفر لى ربى . وهو يباع فى كل مكان . الأماكن « الشيك » فى الفنادق على البارات ، وفى البقالات . يشربه الخواجات . بل أحى به ضيفى وأدعوه ليأخذ معى « درينك » . ما أعظمكم يا خواجات . أليست هذه مدنيتكم ؟ ونحن نلهث لنلحق بها ؟ ما أطعمه . مر المذاق . القهوة أيضاً كانت مرة . حتى تعلمت أن أتذوق .

الحلويات للأولاد والبنات . أما الأشياء المرة فلا يقدر طعمها إلا الكبار .
وأنا كبير . ما أحلى المذاق .

الكحول سريع الامتصاص يبدأ فى الفم . ثم المعدة وأخيراً فى الامعاء.
لا يحدث هذا مع أى دواء . أشرب ، أرشف ، أمص على فترات . الفم
موضع لذات يهدأ عقلى . تنقص منه قدرات ، وتطفو رغبات . يذهب عنى
الخجل ينام الضمير وتنطلق الغرائز وتتحرر الذات أقول ما يحلو لى ،أتشجع،
يعلو صوتى والضحكات .

ولكنى الليلة أشربه لأنام ، لا داعى للصيام ، أو الحرمان . خلقنى
ربى عاصيا. لم الاصرار على الاستقرار . هناك وقت للقرار . اليوم الخمر
والغد الأمر .

عقلى يخمر . جسدى يفتر . عضلاتى تترخرخ . وبين خمار العقل وفتور
الجسد أفعال عشوائية ، بل هرجية . أتوهم أنى « جدع » . ذهب الورع .
الرغبة تستيقظ ولكن القدرة تنام . صاحبتى بجوارى ، أرغبها تنفر منى
فأتهجم . يا للهمجية . . أومن بما لا يملك نفعاً أو ضراً . أعضائى مرخية .
يا للعار . ماذا أقول فى النهار .

ولماذا اللوم ؟ ألم يكن مرادى هو النوم ؟ فليأت النوم ، وبأت اليوم .
كفانى أرق . كفانى قلق ستة أيام والسابع أرتاح . عمل وكفاح . لا وقت
للنواح . ليال طويلة وساعات النوم قليلة .

أنام كالطوبة . هكذا نوم الخمر . نوم عميق بلا أحلام . ولكن
الأحلام ضرورة . النوم المصطنع بالكيمياء يقلل من ساعات النوم الحالم.
النوم موجات بين نوم عميق تتوتر فيه العضلات ، تتحرك تسعون دقيقة .
ثم نوم حالم مصحوب فى العين بحركات ، وفى المخ تأتى موجات . عشرون

دقيقة . هكذا يتخلله دورات . النوم بلا دورات ، أو فترات تتخللها أحلام لهو نوم ناقص . مهما كثرت الساعات ، ولذا أصحو اليوم التالى مرهقا ، متعباً ، بلا شهوات . لا أتناول وجبات . أتألم أتوتر . أبحث عن كأس آخر ، يأخذ عقلى إلى عالم زاخر . . بالأوهام والأحلام . الصبح لا يطاق .

يتعطل عملى . أكسل ، أتألم . تزداد على الأعباء . أتوتر . أبحث عن كأس آخر . هكذا بدأ طريق الإدمان . هكذا غاب الإيمان . أتألم . فأشرب الكأس يتلوه الكأس يتشبع جسمى بالسم . تتآكل كبدى والمخ . تتصلب الشرايين (بعد خدعة الاتساع المؤقت) . وتموت خلايا المخ بالملايين . مخى — مرتع عقلى — يتآكل . ولكنى أنكر . لا يمكن . هذا رئيس للوزراء (أو وزير دفاع) فى بلاد العظماء ، يشرب وكأنه سمك فى ماء . يشرب فى الأزمات . وسط الطلقات ، ويرهقها محارباً بالحديد وبالكلمات . خطيب يلهب المشاعر . زعيم يحده التاريخ . هذا عالم وهذا صاحب أموال . مخى يتآكل والكبد ؟ بل مخ الفقراء ، المحرومين من الغذاء . وأنا آكل وأتناول الهواء . الأذى يحدث لهؤلاء . أما أنا فمعصوم من البلاء .

* * *

وجاء يوم الأطباء . تحاليل المعمل تدق ناقوس الخطر . حينما تظهر التحاليل أن الكبد عليل ، فهذا نذير بأن الكبد المحول قد ضاق وصار مخمولا . لا يتحمل . كأس آخر والموت على بعد خطوات .

عوضونى فاستبدلوا بالخمر أقراصاً . فاليوم أو فاليليل أو أتيفان أو ليكسوتانيل . أقراص مهدئة ظاهرها علاج وحقيقتها بديل . إدمان

بدل الادمان . إدمان «البرشام» . والمفعول؟ مفعول الخمر دون أذى الخلايا . ولكن إدمان . آخذ أقراص لأنام . فأتعود . فآخذها كي أتجنب آثار الحرمان . أرق ، قلق ، توتر ، تشنج ، هذيان . هكذا طريق الادمان . هكذا فقد الإيمان . كيمياء حجبتني عن ربي ، خدعتني . أعطتني راحة مصطنعة . غيبتني عن وعي . قتلتني . الخمر خمار العقل وللجسم فتور . الخمر حرام . وكل ما خامر العقل يدان . أتيفان . ليبراك . أسماء علمية . أسماء عالمية . أفيون مورفين مورفان . كله سيان . أولاد بلد أو خواجات . لا استثناءات .

أما فى المجتمعات فها هو هذا المشروب متداول . القانون يبيحه . فالقانون مصدره غربى . والغرب يبيحه . يعلم الغرب أضراره ، ولكنه يدرك حدود القانون وإمكانيته فى التأثير وحده فى الأخلاق . حاولت أمريكا فى فترة من تاريخها الحديث أن تمنع الخمر بسن قانون . ماذا حدث . انتقل الخمر إلى عالم الممنوعات . وصار من إختصاص «المافيات» ، والسوق السوداء . تصنعه وتهربه عصابات . وتنشر مع فساده الأصيل الفساد المرتبط بالقانون الصارم الذى لا يحترم ولا يطبق لأن الإجماع ضده . الناس تطلبه وتحتاجه . والقانون الذى لا يحترم رغبات الناس لا يحترم . بل يدعو الناس إلى الاستهانة بالقانون فى مجالات أخرى . أنها من بديهيات فلسفة القانون . ولذا تراجعت الدولة عن قانون تحريم الخمور وإباحتها مرة أخرى . واستمرت المشكلة ، وتفاقمت . ولكنها شحذت المبادرات الفردية ثم الجماعية فى محاولات مضنية ، لعلاج وباء الخمر .

لقد حذر المؤرخ العالمى آرنولد توينبى من نقطتى ضعف لم تتمكن الحضارة الغربية من مجابهتهما مثلما فعلت الحضارة الإسلامية . وأشار إلى الأمل فى أن تثرى الصحوة الحضارية الإسلامية الحضارة الإنسانية

بأن تضيف للغرب ما قد ينفع فى مجابهة هاتين النقطتين . ألا وهما وباء الخمر ولا إنسانية العنصرية فالحضارة الاسلامية نجحت فى تنفير الشعوب التى تأثرت بها من الخمر . كما أنها نجحت فى تجاوز العنصرية بتخطيها للحواجز عبر الأجناس والألوان والأوطان . (يستثنى من ذلك مظاهر العنصرية القبلية لدى الصفوة المالية النفطية التى أغراها الثراء السريع على إستيراد الحضارة الغربية برمتها بدءا من السطح قبل الأعماق . فكان التقليد الأعمى للمساوىء قبل المحاسن . وشملت هذه المساوىء اللهفة وراء اللذات الحسية من جنس وخمر ، والتشبث بالاستفراد بالمزايا المالية بواسطة عنصرية قبلية غريبة على الأمة الإسلامية) .

إلى هذه الدرجة تصل خطورة الخمر . ومع ذلك فهى المادة الكيميائية المؤثرة على الوعى المفضلة والمقبولة إجتماعياً لدى العالم الغربى ونحن ، رغم تراثنا الإسلامى ، لا نخجل من أن نكون مقلدين ومستوردين لقوانين وعادات الغرب فنحن نبيح الخمر قانوناً رغم أن قوانيننا الموجهة ضد المخدرات ، صارمة بل قاسية وغير إنسانية ، تكاد تكون وحشية ولا نتعظ بذات الدرس الذى تعلمه الغرب وبناء عليه أباح الخمر وهو أن القوانين يجب ألا تتعارض مع العرف والعادات والتقاليد ، بل يجب أن تحترمها وتنبع منها وأن القوانين وحدها لا تعالج المشاكل ، بل ولا تعالج حتى المظاهر السطحية لهذه المشاكل وأكثر من هذا فإنها غالباً ما تتسبب فى مشاكل جديدة مثل تفاقم التهريب وما يرتبط به من إفساد للذمم وسوء استخدام السلطة وضياع للجهد والمال فى مكافحة خطر أغلبه ناتج عن القوانين ذاتها .

أما العقاقير الشبيهة المفعول بالخمر وهى الأقراص المنومة والمهدئة الخفيفة فقد سبقنا الغرب فى تيسير تداولها فأطباؤنا يكتبونها ليطمئنوا

على مظاهر القلق والأرق ليريحوا أنفسهم ومرضاهم من عناء البحث عن عناء البحث عن مصادر المشاكل وأسبابها بغية علاجها علاجاً جذرياً.
فالطرفان يلتقيان عند نقطة إتقان وهى الاستسهال. فما أيسر أن يكتب الطبيب دواء وما أيسر أن يتناوله المريض، بالمقارنة مع عناء الكشف عن الآلام التى تمكن وراء الاعراض الظاهرة. كلاهما لا يريدان عناء البحث.
أما الصيادلة فما أفضل من صرف هذه العقاقير دون إنتظار وصفة طبيب.
فإذا ما صدرت القوانين المنظمة لذلك الصرف فالنتيجه أن يحجم البعض، ممن يرون فى البعد عن التعامل مع البيروقراطية غنيمة، عن بيعها من أصله، أوقات ينتهز آخرون الفرصة الربح ببيعها بأضعاف ثمنها لمدمنها المحتاج.
أما محترفو المنزعات فأنهم يشترونها بثمن بخس ليعيدوا بيعها فى الظلام وضمن « المخدرات » الممنوعة، وينطبق هذا على الأقراص المنومة أو المهدئة ذات المفعول السريع والقصير الأمد أكثر من غيرها من الأقراص المهدئة الخفيفة، ولا ينطبق على الأقراص المهدئة الكبيرة والتى تستخدم أساساً فى علاج القلق العميق والاكتئاب اللذين يصاحبان أو يسبقان الأمراض النفسية ذات الطابع الذهانى. فهذه الأقراص المنومة والمهدئة الخفيفة تلبى إحتياج المدمن إلى تأثير سريع ومفاجىء على وعيه، وخاصة إذا أخذت على معدة خاوية. كما أنها تشترك مع الخمر فى أن المداومة على تعاطيها لفترة طويلة تؤدى إلى إدمان الجسد عليها فسيولوجيا وليس مجرد الادمان النفسى أى التعود أو الاعتماد عليها بفضل تأثيرها النفسى. وتشترك مع الخمر فى الخطورة المرتبطة بأعراض الانسحاب التى تأتى نتيجة التوقف المفاجىء عنها. إلا أنها تمتاز عن الخمر فى أنها لا تدمر خلايا المخ والكبد أو تؤذى الجهاز الهضمى أو الدورة الدموية وإن كانت كغيرها من العقاقير المخلقة تحمل خطورة أن يكون لدى الفرد حساسية تجاهها.

رغم القوانين الأخيرة المنظمة لصرف العقاقير المهدئة (وهى قوانين جاءت متأجرة أذهى متبعة فى أغلب بلاد العالم وتنطبق على أغلب الأدوية التى لا تصرف ألا بناء على وصفه طبيب وبالكميات التى تتطلبها الحالة المرضية (فإن هذه العقاقير ، كما أشرنا ، ما زالت تصرف فى ظل شبه سوق سوداء للمدمنين . وبالطبع فإن المرضى المحتاجين يدفعون الثمن بلا ذنب . ومن جانب آخر فإن كثير من المرضى يتحولون إلى مدمنين دون أن يسموا هكذا . فما زال تعاطى هذه العقاقير أمراً محترماً بالنسبة لتعاطى « المخدرات » الممنوعة . ويستطيع أن يختبىء المدمن وراء لافتة المرض ، ويمارس إدمانه بشكل شرعى ومدعوم طبيباً واجتماعياً . فهو ليس بمدمن ولكنه مريض يتناول علاجاً تحت اشراف طبيب . أو قد لا يعتبر مريضاً ، ولكن فرداً عادياً وأن كان ضحية توتر ناتج عن ضغوط الحياة ، أو يتناول العقار بهدف الاستعانة به لمواجهة تلك الضغوط ، مثلما يفعل الذى يلجأ إلى تناول « درينك » فى نهاية يوم عمل مضنى (أو فى وسطه) أو الذى « يعمر الجوزة » بغية الاسترخاء ، والعشرة الاجتماعية . أنه مشابهم تماماً مع اختلاف أن ما يتعاطاه ليس محرماً دينياً بشكل واضح (مثل الخمر) أو ممنوعاً قانونياً بشكل واضح أيضاً (مثل الحشيش) الأول منبوذ إجتماعياً من قبل مجتمع يتمسك بتراثه وسلوكه الدينى والثانى منبوذ قانونياً من قبل دولة تحاكى القوانين الغربية التى تمنع المخدرات المزروعة فى العالم الثالث غير المصنعة فى الغرب . والمسألة ليست لها علاقة حقيقية بالاضرار الطبية بل ولا حتى الاجتماعية والنفسية للعقاقير المعنية . فالاضرار الطبية المصاحبة للخمر أشد من أى من « المخدرات » الممنوعة قانوناً . أما الاضرار النفسية والاجتماعية فكثير منها مرتبط بالإدمان كنمط حياة أكثر منه بإدمان عقار بعينه وكذلك بإدمان عقار ممنوع يتطلب الحصول عليه الخروج على

ذلك من إغراء بالخروج على القانون فى مجالات أخرى ومن ثم الاتجاه نحو الجريمة . ومن أخرى فهى لا ترتبط بالخصائص الكيميائية للعقار بقدر إرتباطها بنمطى الإدمان والخروج على القانون .

ومع ذلك فإننا نشاهد تطور مفهوم العقار من مادة علاجية إلى سم أو « مخدر » فكثير من هذه المخدرات (مثل الأفيون والحشيش) كانت متداولة طبياً واجتماعياً بلا قوانين أو ضوابط . ولم ترتبط لا بمشكلة إدمان أو مشكلة خروج على القانون . ومع بداية تعامل الناس معها كعقاقير تستخدم للترفيه ثم الهروب من الواقع ثم كضرورة جبرية (أى إدمان) ظهرت القوانين المنظمة لها ثم المانعة لتداولها بما أضاف إلى مضاعفاتها الطبية والنفسية مضاعفات إجتماعية ناجمة عن التعامل مع ما هو ضد القانون. ونستطيع أن نرى ذلك فيما يتعلق بالمنومات والمهدئات الخفيفة المستحدثة. فها هى بعض المنومات إنتهى تداولها طبياً ولكنها إنتقلت إلى التجارة الممنوعة ، مثلا عقار « الميثاكوالون » الذى يعرف فى عالم الممنوعات بإسم « ميثيلون » . والذى يحدث لبعض المهدئات والمنومات الأخرى شبيه ، فها هوذا ، مثلا ، منوم الـ « روهيبنول » يختفى من الصيدليات ليباع فى سوق الممنوعات وكذلك عقار الـ « أتيفان » وعن قريب قد تجد كل هذه المجموعة ، وربما غيرها ، تنتقل تدريجياً من أرفف الصيدليات وعيادات الأطباء إلى الأكشاك والأوكار والغرز .

٢ — المثبطات

إحساس متبلد . لا شيء يهم . لا معنى للأشياء . لا أريد أن أشعر . لا أريد أن أفعل . إذ لو تركت العنان لما في الوجدان ، لو هممت بفعل أو رد لفعل ، لعلا صراخي وتصعد صراعي مع حولي محيط . الواقع قوي . لابد من تغيير . الخيال يعذبني والفرق بينهما كبير . أين أسير ؟ هكذا كتمت الصراخ . هكذا منعت الحراك . ما دام فتحه يأتي بالريح فلأقفله واستريح .

ووصل بي الحال أن مات الخيال . فلا متع ولا آمال . هذا اللا إحساس إحساس قاتل . ألم التبلد ألم مع ذلك . الحزن والخوف أبقى من هذا الهالك . الموات رعب متخفي . هكذا وصل بي الخوف أقصاه ، أن خفت أن أخاف . وهكذا أخذت أبحث عن معين يخرج من قلبي الاثنين . نعم أريد أن أكون خائفاً أو حزيناً .

العقل توقف . الفكر بطيء . لا شيء مضيء . لا أفهم ما أقرأ . لا أجد ما أكتب . الكلام قليل واللسان ثقيل . عضلاتي تفتقد الحركة . اليوم طويل . لا أجد في النوم بديلا . جسدي الخامل مشدود ، لا يتحرك ، محدود . لا يعرف راحة ، يتقلب . وجفوني ثقيلة ومفتوحة . لا أنعس . لا أحلم نوماً أو يقظة . لا أعلم ماذا يؤرقني . ظلام الغموض يعذبني .

كيمياء الداخل تعجز عن أثرائي . فقر الفكر ورائي . ألا يوجد منقذ في الخارج ؟ عقار ينبه ، ينشط ، يثير الأحاسيس ، ويحجب عني الواقع . يثري الخيال ويجسده ، حتى لو صرت أهلوس . عقار منبه ، منشط ، مهلوس . .

كافيين القهوة والشاى ، نيكوتين سيجارة . اعتدتهم وصاروا روتيناً. كلهم لم يعودوا كافيين . صار التنبيه تبلداً . ضاعفت الجرعة وما زلت خمول.

قالوا خذ ريتالين ، ماكس فورت أو أمفيتامين . والأفضل من هذا كله شمة كوكايين . أبلع قرصاً على بطن خالى يأتيك اليقين ، فى دقائق عشرين أو ثلاثين . ما أحلى النقلة وسرعتها . زيادتها تزيد متعتها . لهذا قالوا شم ، أو أحقن فى وريد .

طرت إلى أعلى وحلقت ، انتشيت وانتعشت . أفكار كثيرة تتطاير . لا يلاحقها قلم بل حتى لسان . أبدأ جملة وقبل نهايتها تلهمنى فكرة وغير الفكرة فكره . لا تلاحقها بالتالى آذان . أتكلم ولا يعنينى من يسمع . أتحرك أتنقل أعبر وأقفز . الضوء يسطع ، والصوت أسمع منه دبيب النمل . بل أحياناً أتخيل صوتاً لا يوجد ، أهلوس . الهمس يصير ضجيج .أتصوره كلام عنى ، يتقصد فى ، لن أسمح . تغرينى نشوتى أن أخرج عدوانيتى . أتخيل قوة لا أملكها . وأهم بضربة فأتلقاها فإذ بى أفيق ، لعجز لم أدرك ساعتها .

أطير وأطير وأتوق للأثير . أسعى للسماء واركب السحاب . وأبحث عن المزيد . أكاد أظن أنى على كل شيء قدير وبكل شيء عليم . (أستغفر الله العظيم) وأنا أيضاً عظيم . أستغفر الله العظيم) . لا خجل ولا حياء . ثقة بنفسى عمياء . وإحساس بالذكاء . (يا للغباء) .

ويأتى التوم الموعود . السقوط بعد الموعود . ما من طير طار وارتفع إلا مثلما طار وقع . أنه الفعل الرديد . ذهب المفعول وعاد الخول . عاد مضاعفاً فكان إحتياجى للخروج منه شديد .

فأعدت الكرة وضاعفت الجرعة . نشاط دوماً مفتعل . حصان مرهق يجرى بفعل الكرباج حتى يقع . إنخفضت ساعات النوم . وامتلأ بنشاطى اليوم . أثرثر أصحو أتحرك . أفكارى تنهشت تتفرق . لا أتحمل أن أعمل . عقلى لا يركز ، جفنى لا يسدل . لا أتحمل صوتاً أو همساً . أتوتر . أتوهم . أكاد أجن . أشعر بالعداء يحاصرنى . وكأن كل صوت يخاطبنى أو أشير إلى . أسمع ما يقال وأقول ما لا يسمع .

يالها من كآبة بعد هذه السعادة . الجنون رهيب . من قال بنعيم المجاذيب ؟ .

قالوا فى الطب لا إدمان عضوى أو جسدى يذكر فى المنبهات . ولكنى عرفت الإدمان النفسى . ما أتفه التفرقة . فأنا عبد فى الحالتين . النشوة النفسية الطارئة ، والكآبة النفسية الباقية . كلاهما يدفعنى للاجبار . كلاهما أساس الإدمان .

عبد أنا لغير الله . هكذا إهتز الإيمان . وحل محله إدمان . صلاة وصوم وزكاة وحج وترديد أجوف لشهادتين . ما أسهل الشهادة الكذب ما أسهل التدين الكاذب والكذب المتدين .

أما التحريم فأقول لم يأت فيه نص . والذى جاء فى الخمر أم الكبائر وجد من يلتف حوله ليبرر عصيانه . فما بال هذه العقاقير المنبهة . أنها لا تسكر ولا هى بخمر . بل القليل منها (أى الشاى والقهوة والنيكوتين) يحاله إجماع الناس . رغم أن نقطة واحدة من النيكوتين المركز تقتل قبل أن تصل إلى المعدة . بل ينفقون عليه أكثر من الطعام وتدعمه الدولة أسوة بالطعام . ويتبادله الناس ضمن كرم الضيافة . فما دام إجماع الناس

يحلل ذلك القليل (الشاى القهوة والسجاير) الذى يتشابه فى كثيره مع العقاقير المنبهة (عائلة الامفيتامين مثل الريتالين والبنزدرين وكذا الكوكايين) فلم لا يحرمون الاثنين ؟ أنه نفاق الناس . يدخنون التبغ بشراهة مدمرة لهم صحياً واقتصادياً ومدمرة لمجتمعهم أيضاً . وكذلك يسرفون فى الانفاق على مكيفاتهم « البريئة » مثل الشاى والقهوة ثم ينقضون على فيدينونى . يقولون عنى أنا المدمن ليتناسوا أنهم هم المدمنون . يعاقبونى ويطالبون برجمى بالحجر بينما يغرقون فى الخطيئة . أنهم مدمنون فى تعلقهم بلذاتهم وممتلكاتهم وجشعهم الذى لا ينتهى . بل هم مدمنون فى آدائهم لشعائر الدين بآلية تخلو من خشوع الإيمان . وكأنهم بهذه المظهرية يسعون لإخفاء حقيقة جرمهم : طمعهم وجوعهم ، وسفاهتهم ، وتقتيرهم ، وأنانيتهم . فالإيمان مقرون بعمل الصالحات . . هم يكتفون بأداء الشعائر وبناء المساجد للتظاهر بالتدين ولكن لا يعرفون معنى العمل الصالح . فلا يبنون مدرسة أو مستشفى . ويفضلون الاستيراد لما يجلبه من كسب سريع على الصناعة التى تتطلب صبراً وتفانى فى العمل أو الزراعة التى بدونها لا مأكل ولا ملبس ولا استقلال قومى .

لهذا صرت مدمناً للعقاقير . لأن واقعى مرير وأنا عاجز عن التغيير . فلجأت إلى ما يعاوننى على تغيير وعى به . ما دمت أعجز عن تغيير واقعى فعلى الأقل أغير وعى المؤلم به ، فأخفف معاناتى .

ولكننى بالإدمان فقدت الإيمان . فالهروب من الواقع تخلى عن الخلافة التى أولانى إياها الله . الرذيلة فى الإدمان ليست فى أن هذه المادة مسكرة أو مغيبة للوعى أو مخدرة أو مفطرة وغير ذلك من نقاط جدل يمكن

أن تنتهى بتحريم كل شيء أو عدم تحريم أى شيء . ولكن الرؤية تتمركز حول نقطتين أهم من الخصائص والآثار الكيميائية لهذه المواد . الأولى هى عنصر الهروب من الواقع واستسهال تغيير الوعى به بدلا من تغييره . والثانية عنصر الاعتماد على الخارج بدل الداخل ، والاعتماد على تعاطى مادة كيمائية تحل محل الإنتاج الداخلى ، أو الاستيراد بدل التصنيع والزراعة ، وهى أيضاً تقابل الاعتماد على غير الله . باختصار : الهروب والاعتمادية . أما الآثار الكيميائية الضارة فلعلها تأتى فى المقام الثالث . وأهمية إبراز ذلك التسلسل تأتى من أن هناك بين هذه العقاقير مالها من آثار ضارة لا خلاف عليها مثل تدخين التبغ وشرب الخمر واحد أهمها تحلل قانونياً ودينياً والثانية تحرم دينناً وتباح قانونياً ، بينما نجد القانون يحارب بضراوة من « المخدرات » مالا تخدير فيه (مثل العقاقير المنبهة والمهلوسة) ولا تنطبق عليه دينياً صفة الخمر (فهى كيميائياً عكس الخمر تماماً إذ تنبه ولا تسكر أو تخامر العقل أو تفتر الجسد) وعليه فيصعب فيها إقناع الناس حتى لو صدرت الفتاوى الرسمية . إذا فإن الدفع بالتحريم الدينى غير مقنع للناس وغير فعال . وكذلك محاولة التجريم القانونى فى غياب إقتناع الناس بما يقرب من الاجماع .

ولهذا لابد من البحث عن مدخل آخر غير التحريم والاباحة سواء بإسم الدين أو القانون . وهنا نجد مدخل التوعية بطبيعة الإيمان بالله فالمؤمن بالله يعلم أنه خلق ليكون لله فى الأرض خليفة وأنه جاءها ليعمرها لا يدمرها . وأن الدين طريق دنيا وآخرة وليس بقصر على التفرغ

الشعائر أو الزهد فى الدنيا والانسحاب من الواقع . فنى العمل عبادة ، وفى التنعيم بمتاع الدنيا عبادة ، الأكل والجنس ، والصراع بالحرب أو السلام عبادة وفى البقاء والفناء عبادة . وبالتالى فإن الهروب من الواقع بأى شكل ينقص من إيمان الفرد . وقد يكون الهروب فى أيسر صوره بواسطة تعاطى مادة كيميائية تؤثر على الوعى بما يجعله يدرك الواقع على غير طبيعته ولعل أسوؤها المواد المهبطة أو المسكرة مثل الخمور والعقاقير المنومة والمهدئة وخاصة إذا أخذت بشكل مبالغ فيه أو يهدف إلى الهروب أو الاستمتاع البحت لا العلاج من حالة توتر بتخفيفها مؤقتاً إستعداداً للعودة إلى التعامل مع الدنيا مرة أخرى ، أى كنوع من الانسحاب المؤقت إستعداداً لدورة انقضاض تالية . مثل هذا الدافع وراء تناول هذه العقاقير يحمل خطورتين: الأولى أنه هروب فى حد ذاته يحرم الفرد الهارب أسوة بالمجتمع الذى يهرب منه من فرصة إصلاح وتفاعل متبادل ينمى الاثنين معاً . والثانيه أنه يغذى ذاته فى حلقة مفرغة بما يوفره من طريق سهل بديل للتعامل مع الواقع يزداد الاغراء اللجوء إليه كلما استمر الواقع بلا تغيير والفرد بلا خبرة محاولة التغيير . أى أن الواقع يزداد سوء كلما أفتقد محاولة الفرد تغييره والفرد يزداد عجزاً عن التغيير كلما أجتنب خبرة المحاولة والمواجهة . وتبدأ الحلقة المفرغة حينما يفيق الفرد ليصطدم بالواقع فى صورته المضطردة الرذالة وعجزه هو المتزايد ، فتكون حاجته إلى الهروب أشد والجرعة التى يحتاجها من العقار لكى يهرب أكبر ويزداد الأمر سوءاً حينما يبدأ تفاعل العقار مع جسد الفرد بما يثبت الاعتمادية النفسية باعتمادية جسدية . فالجسد يصبح معتمداً على العقار بما يجعل التوقف عنه يصاحب بأعراض إنسحابية مؤلمة

وأحياناً خطيرة . ويتحول المدمن من باحث عن لذة الهروب إلى عالم خيالي إلى مستجير من الرمضاء بالنار أى باحث عن عقار يمنع عنه آلام أعراض الانسحاب أكثر مما يحقق له متعة الهروب إلى عالم خيالي ممتع . ويتحول المدمن من إنسان يبحث عن اللذة إلى إنسان متألم يستجير من الألم ويبحث عن تخفيف حدته . أنه كمن يبتر عضواً من أعضاء جسده لأنه به آفة عجز تخفيفها ، أو كمن يبتر ذراعه لأن بأصبعه دملة .

أما الشق الثانى وهو الاعتماد على غير الله والعبودية للجسد والمادة فهو أيضاً يفقد المرء إيمانه . فالعبرة فى الطمأنينة النفسية المصاحبة للإيمان هى فى قدرة المرء على تجاوز ذاته والذوبان فى ذات الله بما يجعله قادراً على التخلى عن جسده برمته وكل ما يتصل به . وهو أمر لا يتحقق بشكل مطلق أبداً طالما نحن أحياء فى الدنيا . ولكنه هدف لا يمكن التوقف عن السعى نحوه طالما نؤمن بالله ونسعى إليه . أى أننا طالما نوجد فى هذه الدنيا ونحيا بهذا الجسد فنحن بعيدون عن حالة الطمأنينة النفسية المطلقة . النفس المطمئنة لا توجد إلا بالقدر الذى تعود فيه إلى ربها راضية مرضية . ولكن طالما هى حية ومرتبطة بجسد فهى تتأرجح بين أن تكون نفساً أمارة بالسوء أو نفساً لوامة . ولأنها أمارة بالسوء فلا مفر لها من اللوم . ولأن هناك صراعاً بين الأمر بالسوء واللوم فهناك بحث أبدى عن الطمأنينة . ولأن هناك بحثاً عن الطمأنينة فهناك أمل فيها وإيمان بها وعند نقطة تحقيق تلك الطمأنينة يمكن للنفس أن تكون راضية مرضية .

أما البحث عن الطمأنينة المصطنعة بواسطة المواد الكيميائية المتعاطاة من الخارج فإن ذلك يربط المرء بالجسد وبالدنيا بشكل يجعله عبداً لهما .

ولأنها طمأنينة مصطنعة فإنها بطبيعتها مؤقتة وزائلة ومرتبطة بالمصدر الخارجي المصطنع لهما . تطمس صراعاً طبيعياً بين أمر بالسوء ولوم رديد . وطمس الصراع لا يحله ولكن يؤجله بما يجعله يتفاقم لأن أسسه وأسبابه ما زالت كما هي بل زادت لأنها لم تواجه ولم تحل بشكل جذري . الأمر بالسوء طبيعي . هكذا خلقنا الله عصاة . يأمرنا بالطاعة بألا يأكل آدم من تلك الثمرة ، فعصى آدم بعد أن وسوس إليه الشيطان وهو يدله على شجرة الخلد وكنز لا يبلى . ولكن لوم النفس والندم على الخطأ والتوبة أيضاً أمور طبيعية . أنزلنا الله إلى الدنيا لنختبر تلك الحقيقة . لقد خيرنا بين العصيان أي طاعة النفس الأمارة بالسوء والطاعة لأمره بعد مراجعة النفس ولومها والتوبة عن العصيان . ومكننا من أن نحقق الاثنين مرجحين في النهاية كفه الطاعة ، في ظل رحمته وغفرانه . لو أراد أن يختلفا ملائكة لا نستطيع ألا الطاعة أو شياطين لانستطيع ألا العصيان لفعل . ولكنه فضلنا - بطاعتنا وعصياننا - عليهما وأمرهم أن يسجدوا لآدم ففعلوا ألا إبليس أبى واستكبر . وهذه أيضاً إرادته أن يأبى إبليس ويستكبر . فالأمر كله له ، يفعل ما يشاء ويقول للشيء كن فيكون .

فالصراع (بين الأمر بالسوء واللوم) أو الألم أمور طبيعية وهي من إرادة الله . وعليه فلابد لنا من القدرة على تحمل الألم . ولكن طبيعة الألم، ولو بحكم التعريف لمفهومه ، أنه حال يهدف إلى إزالة نفسه . أننا نتألم بمعنى أننا نصبح في حال لا نرغب في إستمراره ونرغب التخلص منه . طبيعة الألم أنه يدفع صاحبه إلى البحث عن نقيضه أي اللذة ، بهدف التخلص منه . أننا في مأزق : من جانب نتقبل الصراع والألم كجزء من طبيعة الوجود

فى هذه الدنيا . ومن ناحية أخرى نتقبل الرغبة فى التخلص من الألم كوجه آخر لهذه الطبيعة . أننا نقبل الألم ونرفضه معاً . وفى هذا الجمع بين النقيضين — الألم واللذة — فإننا ندرك طبيعة أمر الله وحكمة الوجود . وعليه فإننا ندرك أن لاعجالة للتخلص من الألم فهو من طبيعة الوجود . كما ندرك أنه لا مفر من رغبة مضادة وهى الرغبة فى التخلص من الألم والبحث عن اللذة .

ان مثل هذا الإدراك المتناقض لطبيعة الوجود يجعلنا نتماشى مع طبيعتنا ونتقبل أمر الله دون أن نتصارع معه أو نسعى إلى اصطناع الوسائل لمقاومته . أننا نعيش النقيضين ونقبلهما : فلا عجالة إذا للتخلص من الألم . وفى المقابل لا رغبة تدميرية ذاتية فى التمرغ أو الغرق فيه (كما يحدث فى الحالات المرضية المسماة بالمازوخية) .

ومن هنا فلا مبرر للاستعجال بتناول عقار يغير الوعى بهذا الألم ويبحث عن تلك اللذة . وتزداد القناعة بذلك حينما ندرك أن الله قد وفر لنا الآليات الطبيعية لمقاومة الألم أو تحمله . فالمخ يفرز داخلياً مواد شبيهة بالعقاقير التى نتناولها من الخارج بغية تغيير الوعى . بل أن إنجذابنا لهذه المواد مصدره أنها تحاكى هذه الافرازات الطبيعية . فما نحصل عليه بواسطة المواد الكيميائية المؤثرة على الوعى — سواء كحوليات أو أفيونيات أو غيرها — نجده يفرز (أو يفرز شبيهة فى المفعول) من داخل الجسم وعلى الأخص فى الجهاز العصبى والمخ نفسه . ولكن الفرق بين الانتاج الداخلى والاعتماد على الخارج فرق طفيف ولكنه أساسى وهام . وهو أن الطبيعى ملائم لحاجة الإنسان ونابع من إمكانياته الداخلية بينما الصناعى

قد يكون متعارضاً مع الحاجة علاوة على أنه يعتمد على غير إمكانياته . ولذلك قد يتحول من أفراز طبيعى إلى دواء يتم تناوله من الخارج ومن دراء إلى سم يؤدى الجسد بل إذا زاد يؤدى إلى الموت . فكل هذه العقاقير المؤثرة على الوعى إذا ما أخذت بجرعات كبيرة تؤدى إلى الموت . وعلى الأخص فى المواد المخدرة (مشتقات الأفيون وخاصة الهيرومين) حيث تقترب الجوعة الممتعة من الجرعة المميتة . وحوادث الموت من الخطأ فى الافراط فى تناول الجرعة الممتعة ليست بقليلة ، ولا خافية* .

فالاعتماد على غير الله ، ومقاومة الطبيعة والفطرة التى خلقنا عليها ، يبعدنا عنه ويحد من إيماننا به لأنه يحجب إدراكنا له . والهروب من الدنيا التى أنزلنا الله فيها بالبحث عن جنة مصطنعة بواسطة مواد كيميائية عصيان لأمره الأساسى وهو أن ننزل إلى الأرض لنكون له فيهما خلفاء نبنى ونعمر لا نهدم أو ندمر .

الإيمان هو بديل الإدمان . والإدمان يتم على حساب الإيمان . فى الايمان هناء والهناء هداية من عند الله لا يأتى بكيمياء .

---

* فالمعروف أن إحدى الأسر المالكة والتى تسيطر على تجارة المخدرات شددت القبضة على هذه التجارة بعد أن مات أحد أبنائها لهذا السبب ولكن المشكلة ما زالت قائمة لأن حافز المكسب من وراء هذه التجارة أكبر من حب الملوك لأولادهم فالذين يفسدون قرية إذا دخلوها ويجعلون من أعزة أهلها أذلة لن يتورعوا عن قتل أولادهم ولن يخشوا أملاق فى سبيل ملك يبلى .

٣ موسعات الوعى

صارت القاهرة مدينة بأسرع مما استوعبت المدنية . كانت القاهرة منذ جيل تحوى مليونى نسمة وأصبحت اليوم أحد عشر مليوناً أو أكثر . أى أن غالبية سكان القاهرة ريفى المنشأ . وحتى الذين نشأوا فى القاهرة فهم من أبوين غالباً ريفى العقلية والمنشأ . القاهرة قرية ضخمة فى عقليتها ومدينة ضخمة فى تركيبها المادى . مسكينة القاهرة . كيف كانت تكون لو لم يهبها الله محافظاً يندر وجود مثله فى التفانى والإخلاص والكفاءة والعقل المنظم والقلب المحب .

أنا ريفى المنشأ والعقلية . ولكن تلك المدينة الضخمة . الظروف المادية لتركيبة المدينة تفرض على عقلية مدنية . ولكن تكوينى النفسى والاجتماعى والثقافى ريفى .

فى الريف ينتمى الفرد للجماعة للأسرة أو العشيرة أو القرية . بينما فى الحضر تتأكد الفردية . ولذلك فإن الريفى ينادى بإسمه الشخصى على عكس الحضر حيث الميل لاستخدام إسم الأسرة . وفى الريف تحتفظ الزوجة بإسمها بينما فى الحضر تأخذ إسم أسرة الزوج . الريفى جماعى لا يرى غضاضة فى الاحتفاظ ببعض مظاهر الفردية . فى الحضر تغلب الفردية ولذلك يلجأ الفرد إلى نفيها بأن يؤكد إنتماءه إلى جماعة . فإذا فرضت الظروف المادية العزلة الفردية عليه (بأزمة سكن أو مواصلات أو إتصالات) لجأ إلى النوادى أو الجميات أو الأحزاب أو ما شابه كمحاولة أخرى للانتماء إلى جماعة .

الحضارة الغربية مدنية حضرية فى أساسها . وهى لهذا فردية تؤكد الملكية الخاصة بشكل مفرط (الرأسمالية) أو تتطرف فى محاولة نفى هذه

عن نفسها (الشيوعية) . أما الشرق فهو جماعى الميل ولذا لا يتطرف فى الفردية أو فى محاولة نفيها عن نفسه .

أنا فردى بحكم ظروف المدنية . ولكنى جماعى بحكم الأصل . فرضت على الفردية ولكنى بداخلى أتوق للجماعية . ولذلك بحثت عن طريقة سريعة وفعالة لتخطى حدود ذاتى وللذوبان فى الجماعة . وقدمت لى المدنية عقاقير مذيبة للوعى Psycholytic (ولها أسماء أخرى تعكس بعض صفاتها . فهى أيضاً محاكيه للذهان .

Psychoto mimetic لما تؤدى إليه من حالات تشبه الجنون المؤقت . كما أنها موسعة للوعى Psychedelic لما تؤدى إليه من حالات وعى متسعة تشبه الخبرة الصوفية أو القمية experiences Mystica larpeek وهى مهلوسة hallucingenic لما تؤدى إليه من تأثير على الإدراك يصل أحياناً إلى درجة الادراك الوهمى أى أن يدرك المرء أشياء دون وجود مؤثر خارجى يفسر إدراكها) .

صحيح أن هذه العقاقير قديمة وعرفتها البشرية منذ قرون . وبعضها كان يستخدم فى الطقوس والشعائر الدينية كما فى حالة إستخدام نباتات وفطريات تحوى المواد الفعالة (مثلا الميسكالين فى بعض قبائل أمريكا الجنوبية قبل الاستيطان الغربى) وبعضها إستخدام لإيهام الناس أنهم فى الجنة كمكافأة لطاعة زعيمهم (الحسن البصرى) وارتكاب القتل من أجله (من هنا جاءت كلمة assassin الإنجليزية أى قاتل وأصلها « حشاشين ») . ولكن المدنية الغربية — بعد أن كانت تحتقر هذه العقاقير وتحاربها لصالح الخمر ومن أجل ترويجه — أعادت إكتشافها .

لقد وصلت المدنية الغربية إلى ذروتها . وبدأت تدفع ثمن هذه المدنية .

الافراط فى الفردية تحول إلى اغتراب وعزلة وأنانية . الافراط فى حب المال والسلطة ، أو الملكية والسيطرة ، أى أمور الدنيا على حساب الآخرة ، تحول إلى تدمير الدنيا وقتل الأوزة التى تبيض الذهب . فالبيئة تتلوث بل تتسمم وتهدد البشرية فى صحتها ووجودها ذاته . الطبيعة تنقد ثراتها بأن تبور الأرض وتتصحر الأراضى الخضراء بالغابات والنباتات وتجف الأنهار وتبتل الأراضى وتتسمم الأغذية ويتغير المناخ الجوى وهكذا . ويضاف إلى ذلك ثمن اضطراب العلاقات الإنسانية سواء بين الأفراد داخل المجتمع الواحد أو بين المجتمعات . بالقمع يطمسان الفردية الظاهرة . فتصير هذه مجرد غطاء لفقدان الحرية الفردية فى جوهرها . وتشتعل الثورات والحروب ، وتزداد الفجوة بين الأغنياء والفقراء وبين الشعوب المتمدينة والشعوب اللاهثة وراء المدنية ، وتتفاقم أزمة السكان بزيادة المواليد وانخفاض الوفيات دون تنظيم وغير ذلك من مشاكل .

بدأ الغرب يدفع ثمن مدنيته وفرديته . وبدأ يعيد إكتشاف العقاقير المذيبة للوعى والتى تزيل الحدود بين الفرد والآخر . وذلك فى محاولته للتغلب على إفراطه فى الفردية والتشبث بحدود الذات على حساب الموضوع . ولم يقتصر الأمر على إعادة الاكتشاف ولكن أضيف إليه تخليق العقاقير الجديدة ومن أهمها عقار الـ إل . إس . دى L S D 25 الشديد القوة فى مفعوله .

ان هذه المجموعة تشمل عدة مواد أضعفها تأثيراً هو جوزة الطيب (والذى لا يخضع لقانون ويستخدم فى الطهى لإضافة مذاق للطعام) ثم يتلوه القنب الهندى (وأهم مشتقاته وأقواها الحشيش ويتلوه الماريجوانا).

وتأتى بعد ذلك مواد نباتية أو فطرية أو مخلقة مثل الميسكالين والسيلوسايبين والـ PCP والـ L.S.D 25 وغيرهم) .

فهذه المواد رغم وجودها ضمن التصنيف القانونى « مخدرات » لا تخدر ولا هى حتى تنوم . ولكن أثرها الطبى مميز . فهى تؤثر على الإدراك أساساً بأن تؤدى إلى حالة إتساع للوعى وتفكك ومحاكاة مؤقتة للذهان (الجنون) . لدرجة أنه حينما اكتشف الـ ال . اس دى كان الاعتقاد أنه سوف يكون مفتاحاً لتكنولوجيا التصوف أى طريقة تكنولوجية نفسية تهدف إلى الحصول على الخبرة الصوفية بدون معاناة الاعداد الطويل لها (يا لعبادة أو العمل الصالح) . كما كان يعتقد أنها وسيلة لتعليم الأطباء والمعالجين النفسيين عن معايشة الخبرة الذهانية بشكل مباشر . وكذلك جاءت محاولات لدى أجهزة المخابرات لاستخدامها لجلب الاعترافات « وغسيل مخ » الخصم .

فقد كان من الدعاة لفوائد هذه العقاقير مفكرين محترمين من أمثال الكاتب الإنجليزى آلدوس هكسلى الذى كتب كتيبين * عن خبرته لعقار الميسكالين وكذلك آلن واتس ** علاوة على العالم النفسى تيموثى

---

* Aldous Huxley . "The Doors of Perception, Between Heaven, Hell"

** Alan Watts : "The Soyous Cosmulogy".

ليرى الذى نشر أبحاثاً عديدة فى هذا الموضوع . وصارت هذه البدايات من أهم الحوافز التى عجلت بقيام ثورات الشباب فى الستينات وأهمها « الهيبيز » Hippies .

إلا أن التأثير الحاد والقوى لهذه العقاقير وما تحتاجه من اعداد سابق وتكوين نفسى قوى لكى لا تحدث مضاعفات نفسية خطيرة (كأن يصبح الجنون المؤقت جنوناً دائماً أو يصطحب الجنون المؤقت عملا خطيراً كأن يعتقد المرء أنه على كل شيء قدير ، فيحاول مثلا أن يطير فيرتطم بالأرض قتيلا ، أو أن تتحول الخبرة الصوفية واكتشاف الجنة إلى خبرة شيطانية والاحتراق فى الجحيم) حد من إنتشارها علاوة على كونها لاتؤدى إلى إدمان عضوى . واكتفى أغلب المتعاطين بالعقاقير الأخف مثل مشتقات القنب .

أعاد الغرب إكتشاف هذه العقاقير فى محاولاته للخروج من أمراض الفردية المفرطة وما يرتبط بها من تشبث بأمور الدنيا من ملكية وسلطة . وبعد أن كان يحتقرها ويمجد الخمر صار يرى مزاياها وعيوب الخمر . ولذلك خفف الجرم المرتبط بتعاطى مشتقات القنب من جناية إلى جنحة إلى مخالفة وفى بعض البلاد (مثل هولندا وأسبانيا) إلى عمل مباح (وأنه لم يشرع أحد عملية الاتجار) . وميز فى قوانينه بين ما وصفها بأنها عقاقير خفيفة Soft arugs والتى من ضمنها مشتقات القنب والعقاقير الجامدة hard drugs مثل مشتقات الأفيون . وأن كان لم يجرؤ بعد على إعادة محاولة تحريم الخمر ولكن يتعامل معها من منطق المقاومة التدريجية ضمن حملة شاملة ضد الإدمان بصفة عامة بما فيه إدمان تدخين التبغ . واستخدام (فى حملته)

الوسائل المتحضرة والخطط الطويلة المدى والمعتمدة على الوقاية والتربية لا العقاب . فالعقاب أدنى وسيلة لأحداث تغيير فى السلوك . ويصلح لذوى التكوين النفسى والعقلى . المتخلف . ولا يحترم إنسانية الإنسان كما أنه : قد يأتى بنتيجة عكسية بأن يشبع وينمى النزعات المازوخية فى الفرد . فيرتكب الجريمة من أجل العقاب ، ويستخدم العقاب كوسيلة لتخفيف العبء عن ضميره ، فيعاود الجريمة بما أنه دفع الثمن مقدماً بأن تلقى العقاب . وإذا كان الثواب أرقى منه درجة فإن الطريق الأمثل لأحداث التغيير فى السلوك هو القدوة . فالإنسان يميل إلى التوحد مع من يراه مثلا أعلى له . والسلوك الذى يكتسبه بفضل هذا التوحد أبقى وأرسخ مما لو كان دافعه هو الخوف من نار أو الطمع فى جنة .

أخذ الغرب يخفف العقوبة على تعاطى هذه العقاقير الخفيفة وبالتحديد مشتقات القنب بينما كشف حملاته (بالتوعية والتربية) ضد العقاقير المقبولة إجتماعياً وغير المجرمة أو المحرمة مثل الخمر والتبغ . فقد أدرك الغرب أن عامة الناس لا يستطيعون مجابهة واقعهم بشكل إيجابى وفعال . وأنهم فى حاجة إلى ما يعينهم على الهروب منه ولو بشكل وقتى ومتقطع . وأنه لا جدوى من محاولة القضاء على جميع وسائل الهروب الكيميائية . والأجدر أن يسعى إلى اختراع مادة كيميائية محدودة الضرر ولكن فعالة وبوفرها للناس . ولا مفر أيضاً من أن تتحول نسبة من هؤلاء إلى مدمنين ومرضى يدمرون أنفسهم بالهروب ولكن هذه ليست مشاكل ناتجة عن الأثر الكيميائى للدواء بقدر ما هى ناتجة عن التركيبة المرضية للشخص . وعلية فيجب التعامل مع هؤلاء على أنهم مرضى نفسيين وليسوا مجرد

، مدمنين ، وضحايا المفسدين فى الأرض من تجار المخدرات الواجب إعدامهم . أن مثل هذا التفكير السطحى قد تجاوزه من . الغرب وان كان يجد صدى فى بلادنا حيث للقمع والديماغوفية سيادة .

أنا ريفى . أنى أوجد فى المدينة بجسدى . ولكن الوجدان هناك . حيث تذوب الحدود بين الفرد والمجموع ، وبين الأنا والآخر ، وبين الذات والموضوع . أنا مجرد كيان زائل والبقاء لله وحده . ما الحياة الدنيا ألا لعب ولهو . أنها متاع إلى حين . أما هؤلاء فهم فى المال والسلطة طامعون . ماذا عساى أن أفعل وسط هذا الجحيم ؟ آه لو يعلمون أن كل شيء زائل ، لو يعلمون أنى لا أتعفف عن الدنيا أو أزهد فى مالها والبنين . أحب المال والسلطان بين حين وحين أحب المآكل والملبس والراحة والمتعة . ولكنى لا ألهث وراءها فى كل رقعة . إذا وجدتها إستمتعت بها وإذا لم أجدها لم أبك أو أذرف دمعة . أستطيع أن أنعم أينما كنت ووقتما أكون . الجنة هنا والآن ووقتما أريد . والله أقرب إلى من حبل الوريد .

المدينة تحاصرنى . الزحام المصحوب بالاغتراب . العمارة يسكنها أعداد، أعرف منهم أفراداً . البواب يذهب ويأتى بواب . العجوز ينام ويحل محله عرسان . الضوضاء فى كل مكان : لا تحترم عقول ولا آذان . لا أجد مساحة لتأمل على بالصبر التجمل . لا تفكير ولا تخييل . حواسى تشغلها المثيرات . والأصوات تدعمها مكبرات . على أن أحترس . قد تداهمنى سيارة . قد يقتحم لص العمارة . قد يثرثر فى أذناى أبله أو كذاب أو أفاق. المبانى العالية تحجب عنى السماء . وما تبقى تحجبه عنى سحابات الدخان من

عادم السيارات وعادم الأفراد الذين لا يكتفون بالهواء المسمم فيستنشقون دخان التبغ ، ولا يهمهم أن يسعلوا بل يبصقوا فيضيفوا للتلوث قذارة وقبح .

رد فعلى الطبيعى أن أحمى نفسى بأن أكون أنا . . أنا منفصل ومتعارض مع الآخر . على أن أنمى الأظافر والأنياب وأدخل صراع الغاب . بمجرد ما صرت « أنا » بدأ الصراع هناك وهنا . « أنا » تعنى نفى « أنت » تعنى الصراع أينما كنت .

فى المدينة يشربون الخمر لتيسير الصراع فى المدينة يسكرون حتى القاع . أنا ابن الريف أتوق الراحة والسكون : ولو تجرأت وصرخت فلن أكون . القاهرة قاهرة قامعة . الجند مسلح فى كل مكان . بالعصى والرصاص وبيصن الصفاح . وأنا لا أملك الاسود الصحاف . قلب وعقل بلا ذراع . رغم التلفاز والمذياع ، أرجل تسير فى بجوار الحائط . يقولون جبان . ولكنى حريص حكيم . أنتظر وأعد الأيام .

أستعين بالجوزة أو بالشيشة ، لأدخل فى صدرى حشيشة . البدوى حليفى يهرب بهارغم السلطان . ويعطى السلطان نصيبه يتكلمون عن الاعدام وهم بسكر الخمر طين ومن دخان التبغ ساعلون . هل يعدم الجلاد نفسه وهو فى الجرم شريك ؟ يضبطون العشر للتمويه . وللتسعه أعشار التوزيع. ولهم نصيب الأسد . ولنا الدخان . وقليل من الأمان . وإمان ورب إيمان.

هذا القنب الهندى ، زرعه مثل ربى . غير مصنع أو مخلق ، غير مخمر أو مقطر . ربما خلط للتخفيف ولصالح خزنة العريف . إذا كان حراماً أحرقه ، وإذا كان حلالا أشربه . ماذا يريدون؟ أنهم يشربون ويأكلون

وفى المتع غارقون . متع حسية ، ومتع السلطة والملكية . أسير جنب الحائط ، أخنع ، أخضع . وهم يتسلطون . يظنونى جباناً وأنا حكيم . أتركهم سكارى غارقون فى القذارة . وأنا أنظر وأتأمل وأنتظر : لجبروت الدنيا نهاية ، ولا يدوم ألا الجبار الواحد الأحد القهار . قاهرة مؤقتة والقاهر الواحد يدوم .

خضعت له وحده ووعدنى أن الأرض أرث المستضعفين . أبواب الجنة مفتوحة لنا ، والأثرياء ، كالجمال ، باب الجنة لهم ثقب إبرة . صعقونى فاستبدت ، ولهم الغفران طلبت . قتلونى هكذا ظنوا ولكنى صعدت . وفى الجنة بقيت . أتأملهم فى تألمهم . ألم الطامع الذى لا يشبع . ألم الجشع . والخوف من فقدان ما به يتشبثون ، وهم لزواله يتجاهلون . مساكين قومى إنهم لا يعلمون .

لقد استأنست بالشيشة واستمتعت بمفعول الحشيشة . ماذا يضير ؟ لا عدوان ولا هذيان كما السكران . أقود السيارة بجودة . أضحك ، أسالم ، أحب ، أفعله مع من تريده لا إغتصاب ولا بذاءة . فأنا والسكون وحدة ، فى إنسجام . ياسلام : المعتدون لا يفهمون ، يظنونه خنوعاً . فى المدينة يشربون « المية » ثم يستلون السكينة ، لا يعرفون السكينة ، ولا السلام . يا حرام خلايا المخ لا تتلف ، ولا الكبد يتليف ، ولا المعدة تتقرح ، ولا المصران . ولا الجسد يدمن ، ولا ألم حرمان . أتعاطى أتوقف ، فى أى زمان ومكان . فى السجن ، فى المستشفى ، فى الحارات والبارات ، مواطنين وخواجات . حرام ؟ فيها قولان . ممنوع ؟ ما أسفه أن يمنع ما يبيحه إجماع . قانون وظيفته زيادة أسعار ، وفساد ذمم ، وضياع هيبة لقانون حينما يستحيل تطبيقه .

وقال فيه شاعر .

دع الخمر وشرب من مدامه . حيدر
معنبرة خضراء مثل الزبرجد
هى البكر لم تنكح بماء سحابة
ولا عصرت يوماً برجل ولا يد
ولا نص فى تحريمها عند مالك
ولا عنـــد الشافعى وأحمد
ولا أثبت النعمان تنجيس عينها
فخذها بحد المشرق المهند

لم لا أجرب ما أقوى منه ؟ أبواب الجنة قريبة . وصفها كتاب وعلماء . ولكن هنيها . أستعد أنا لمواجهة أغوار نفسى ؟ أمستعد لأن أفتح قمقما لا أعرف إذا كان بداخله مارد كنهه ملك أو رب شيطان ؟ أليس الأجدر أن أعرف نفسى أولا وأحلل لى الأحلام ؟ سيلوسايبين ميسكالين أو ال . اس . دى . خمسة وعشرين . لا خوف على جسدى ولا خوف من إدمان الخوف كل الخوف على نفسى أن يغرقها طوفان . أن ترى رؤية لا تعود بعدها سالمة ، أن يفتنها حلم سلام . وتنعلم بعدها أظافر وتخفت الإرادة وتنم .

أتذكر صوفية الإسلام . بل كل صوفية فى كل الأديان . متشابهة الخبرة القمية ، خبرة عبر الزمان وخطوة عبر المكان . فى الإسلام لا كهنة ولا رهبان . الإسلام جوهره إيمان . قالت الاعراب آمنا فذكروا أن ما دخل إيمان . قلوب بعد خالية . فليقولوا إسلام . أما ماهنا فى القلب

فيضنان . لا يجوز الجهرية أو التفاخر : من عرفه لا يدعيه ، ولا يبوحه لآخر يدعو له بغير الطريق المباشر . بالقدوة ، بالإشارة ، بالتعاشر . هكذا يفهمه لبيب ، هكذا الحدس المباشر . لا عقل ولا تحليل . لا قهر ولا تلقين . لا إكراه فى الدين . هكذا بالإسلام ندين .

فى الإسلام لا يبوح صوفى بسره . لا يدعى علماً لنفسه . لا يبخل بعلم على غيره . يبدأ الصوفى بنفسه . هكذا يبدأ بقلبه . لا يثرثر لا يتفلسط . لا يقول بل يفعل . عالم بالنفس ، بالرب يأنس يخلو بنفسه صافياً ، بين الناس ينجلى . فى خلوة فى جلوة ، مع نفسه مع ربه وخلقه . بروحه وجسده . دين دنيا وآخرة .

فى الكيمياء اكتمال لخبرة هى فى جوهرها طبيعية . والخبرة تأتى طبيعياً بالهداية من عند الله فى كل الأحوال . ولكن هناك طريق السعى إليها أما بالمثابرة فى العمل الصالح أو بالعبادة حتى يأتى اليقين . فى الحالتين إنكار للذات . إلا أن إنكار الذات الذى يكون الدافع وراءه رغبة الذات فى الحصول على الهداية ينقضه شىء . وهو أن هناك ذاتا ما زالت ترغب حتى ولو كانت الرغبة هى رغبة فى نفى الرغبة وإنكار الذات . أن لحظة الفناء التى تنتفى فيها الذات بطبيعتها تلقائية وليست متعمدة . ولكن هذا لا يمنع أن يكون الطريق إليها — بالعمل الصالح والعبادة — متعمد .

ان الوصول سهل ممتنع . الله قريب ، أقرب من حبل الوريد . الطريق إليه طويل ، محفوف بالصبر والرجاء . ولكنه حينما يأتى بالهداية يبدو جد قصير . الوصول بالكيمياء سريع . ولكن بعد زوال المفعول يأتى السقوط بعد الوصول . إنه كعبور البحر قفزاً بلا معبر ينتهى الأمر بأن يجد المرء نفسه معزولا على جزيرة أو ربما غارقاً فى البحر ذاته .

الوصول بالكيمياء مغزى . ويزداد الاغراء بعد السقوط . فالسقوط يزداد ألماً كلما زاد الصعود بهجة وسرعة . وتزداد الجرعة . وكلما احتاجت الجرعة زيادة ، أنذر هذا بفقدان المفعول . وكلما أدمن الفرد الوصول زادت الدنيا صعوبة . والوصول بلا دنيا ضياع . أسرى النبى سماوات سبعاً وعاد . وصل البوذا إلى النيرفانا ونزل . يصوم الصوفى نهاراً ثم يفطر . يعتزل الدنيا شهراً ويعود . ويتعلم كيف يجمع النقائض : يجمع الصعود والسقوط ، الذهاب والعودة ، الخلوة والجلوة ، العمل والعبادة ، الحزن والفرح ، الشدة واللين ، النوم واليقظة ، الجسد والروح ، الخير والشر ، هكذا . أنها حالة الهناء والسكينة . ولكن بلا كيمياء . أنه طريق الإيمان غير الإدمان .

يصف العالم النفسى إبراهام مازلو الدين من الوجهة النفسية ، على محورين : واحد يعتمد أساساً على السلوك الخارجى وما يرتبط به من قواعد تنظم المعاملات على الشعائر والعبادات . والثانى يعتمد أساساً على الوعى أو الخبرة الداخلية والنوايا . ويرتبط النمط الأول بالتشريع والتنظيم الدنيوى والكهنوت بينما الثانى يعتمد على التوعية والتربية والقدوة .

والتشريع الدنيوى أو العلمانى يقوم على محصلة القوى الاجتماعية السائدة فى حقبه ما . وكلما استند هذا التشريع على إجماع للناس بناء على معتقداتهم وعاداتهم وتراثهم كلما ضمن فعالية تطبيقه ، فالسلطة الدنيوية التى تعتمد على خوف الناس من الضبط والعقاب غير التى تعتمد على إقتناع الناس وصحوة ضمائرهم . ولذا فإننا نرى السلطة الدنيوية فى لحظات تواضعها تنضم إلى صف الجماهير تارة بإسم الاشتراكية وتاره بإسم الديمقراطية وتارة بإسم الدين . وفى هذا إعتراف منها بأن القمع وحده لا يكفى للحفاظ على سلطانها ، وأنها لابد أحياناً أن تعترف بهزيمة القوة أمام الحق ، والمصالح أمام المبادىء والبراجماتية أمام المثالية .

ولعلنا نستطيع أن نبين الفرق بين تأثير السلطة وتأثير العقيدة فى السلوك من مثال بسيط . سئل شاب حكم عليه بالسجن عدة شهور بتهمة السرقة عما إستفاده من العقوبة . قال : ان تعلمت من زملائى كيف أسرق جيداً دون أن أضبط . فإنى أحيا فى مجتمع قائم على السرقة ولا أندم على ما فعلت وسوف أعاوده . ولكنى أندم على شىء آخر لم يضبطنى عليه

سلطان ؛ وهو أنني خدعت عذراء . وان ما أنا بي إنما هو إنتقام السماء . وأنذر أني فور خروجي سوف أعوضها عن فعلتي ، والله وحده هو الأعلم بصدق نيتي » .

أن تربيته القائمة على تراث من المعتقدات . والعادات الدينية غرست فيه قيمة إحترام شرف العذراء . إذ له أخوات وأم . وقد ينجب بناتاً . وما لا يرضاه لقريباته لن يرضاه للغريبات . وهو لا يسرق أسرته أو جيرانه ولكنه يسرق المجتمع الممثل في الدولة والصفوة القليلة المستحوذة على القيمة الكبيرة . فهذا التوزيع غير العادل للقيم الدنيا (السلطة والمال) جعله يلجأ إلى الدين كمصدر لقيم عليا أكثر دواماً وبقاء . ويجد فيه الوازع لسلوكه والمبرر له . فهو لا يسرق حينما يسرق لصاً . ولكنه يزني إذا انتهك عرض فتاة بريئة .

وهنا بالطبع سوف تنزعج الصفوة وتغضب السلطة وتلجأ بدورها إلى الدين من خلال مؤسساته الرسمية فتهدده بقطع يده كسارق أو قتله كمفسد في الأرض (في حالة لو كانت الفتاة المعتدى عليها من بنات الصفوة أو لو نافس الصفوة بترويج بضائع ممنوعة دون حمايتها) . أنه إسلام الثروة في مواجهة إسلام الثورة . والمؤسسات الدينية الرسمية لا تستطيع أن تجهر بعدائها للصفوة حتى ولو كانت تحلم بأن تمتطي غضب الجمهور . فها هي بين فكي الصفوة والجمهور تعتصر ، وتشل حركتها وتتعثر .

في قضية الإدمان والمخدرات فإن تأثير الدين يبدو جلياً فيما يتعلق بالخمر . إذ رغم إباحته قانوناً وتنظيم بيعه علناً فإن الإقبال عليه في مصر المتدينة عبر القرون ، ومنذ الفراعنة محدود . فقد عبرت بمصر الأديان السماوية

وترعرعت فيها جميعاً ونمت فى أرضها الطيبة — اليهودية والنصرانية والإسلام على السوداء. فلا يشكل الخمر فى مصر مشكلة لا بين مسلميها ولا أقباطها. بينما الأمر يختلف فى الاقوام الأخرى التى لم تستطيع التخلى عن وثنيتها العريقة رغم إرتدائها قميص الدين ومبالغتها فى إدعاء السير على نهجه. فهاهم بنو إسرائيل عاودوا لعبادة العجل الذهبى وما زالوا حتى اليوم يمجدون قيمة المال وأخيراً السلاح. وهاهم الرومان الجدد والصليبيون يقتلون المستضعفين فى الأرض بدءا بأقباط مصر منذ قرون، ويأخذون نصيب قيصر كله لهم، تاركين الحلم والجنة ليخدروا به المساكين. وهاهم ورثة أبى جهل وحملة تراث الجاهلية ينتقمون من مستضعفى قريش ومن آل بيت الرسول الكريم ويحملون السيف فى اليمين والذهب فى اليسار، عابثين فى كافة ارجاء الأرض فساداً. هؤلاء جميعاً ابتلاهم الله بداء الخمر وأغرقهم فيها وهم لا يعلمون وهم فى حالة السكر أن ما النشوة إلا حالة مؤقتة، كما صحوة ما قبل الموت.

ان القوانين فى مصر ما زالت تعكس عقلية الصفوة لا الجمهور. وتعكس آثار الاستعمار وما حمله من قيم خلقية وعادات غريبة على الجمهور. ولكن الجمهور المصرى بدوره عريق فى تحضره ويحترم تراثه ومعتقداته بما لا يجعله فى حاجة إلى قوانين وسلطات قامعة تحدد له سلوكه. أما حيث تتفشى الجاهلية فإن مبالغة الصفوة فى ادعائها للدين إنما يعكس ضعف الإيمان لديها أو حرصها على خداع الجماهير وقمعها بذات سلاحها، سلاح الاحتكام للحق لا القوة، ومبادىء الدين لا سلطان الدنيا.

الجمهور المصرى فى أعماقه يرفض أن يغرق فى سم الخمر (وان فطس نفسه فى دخان التبغ). ويرفض وصاية الغرب التى جاءت تحميه من عاداته السيئة وسبل لهوه ومتاعه الشعبية والتى سميت بالمخدرات.

ومع ذلك لم تتوافر الصفوة عن إستخدام العواطف الدينية للجمهور لتحثه على اجتناب ما لا يحقق مكسباً لها لحساب إكتسابه لعادات تربحها - تدخين التبغ وشرب الخمور، واستهلاك الملابس والأطعمة والمشروبات الغربية علاوة على السلع الاستهلاكية والاستفزازية التى لا تنفعه ولا تمثل إحتياجاً ضرورياً له. وكان من الطبيعى أن يلحق بكل هذا الغيض المستورد عادات جديدة وسيئة. فجاء الهيروين والكوكايين وكذلك البراشيم. الأولى مهربة فى حقائب السامسونايت الرشيقة. زرعت فى بلاد الأفغان، تحت إشراف تجار سلاح الغرب، وفى ظل قتال الإسلام ضد ما صوروه على أنه إلحاد الشيوعية الروسية. وزرعت فى إيران، والباكستان، وجنوب الشرق الآسيوى، وبلاد الأمريكى اللاتينى. ولكن المروج والرابح عصابات عالمية، متعددة الجنسية، فى النهاية يسيطر عليها الغرب. يبيعها لنا مع أسلحة الدمار الحديدية البارودية. والثانية يصنعها الغرب صراحة ويروجها فى العالم علناً يتكسب من تجارتها ما جعلها الثانية فى الحجم بعد تجارة السلاح. والوسطاء؟ عرب من أبنائنا. اشتراهم الغرب بأمواله، أغرقهم فيها، ثم حبسها فى بنوكه وأراضيه ومبانيه بل ونسائه.

ولا عجب أن تنقض الصفوة على تجار الأعشاب الشعبية وعلى

المستضعفين من الجمهور من المستهلكين لها . ويزدهر التهريب الرشيق لملء الفراغ ، تهريب شنط السامسونايت .

وعلينا أن نسأل لم قاوم الجمهور الصفوة ؟ لم قاوم الفتوى الدينية التي تحرم ما استهواه ، وهو جمهور متدين ؟ هل هو جمهور مضلل جاهل منحرف كما يحلو للصفوة أن تصفه حتى تفرض عليه وصايتها ؟

هذا فهم غير مقبول لجمهور عريق في حضارته عميق في تدينه . أننا نحترم جمهور مصر الحبيبة بما يجعلنا نراجع أنفسنا إذا ما اختلفنا عنه . فقد يكون مصيباً في خطئه بينما قد نخطيء نحن في صوابنا : ما دام الاجماع ليس على باطل واضح فهناك إجماع لابد من احترامه . وإذا كنا نحاول هنا أن نتقمص الجمهور ونتعاطف معه ونسعى لأن ننقل وجهة نظره ونفهمها فهذا لا يعنى بالضرورة أننا متفقون أو مقتنعون بكل ما يجمع عليه ولكن فقط محترمين ومقدرين لذلك الإجماع بل أنه حتى لو افترضنا صحة رأينا ورغبتنا في إقتناع الجمهور به فلابد أن نتعاطف معه ونشعر بمشاعره أحياناً لدرجة التوحد معه . وبعدها ننتقل سويا بالتدريج من حيث كان إلى حيث نريده أن يكون .

وإذا نحن بصدد موضوع الإدمان فإن الذى نريد أن ننقل وجهة نظرهم هم جمهور المتعاطين والمروجين لأعشاب اللهو الشعبية . فكثير منهم متدين ، جاد في تدينه ، صالح ومستقيم ومع ذلك يخالفون السلطان والقانون . من التجار من شهد لهم خصومهم من ضباط الشرطة (إذ لم نختلط نحن بشرف التعامل معهم مباشرة) بالشهامة والشرف في الحفاظ على الكلمة فتجارتهم الممنوعة لابد لها من كلمة الشرف وألا فشلت ومن ثم صارت

كلمة الشرف سمة جوهرية فى طباعهم) . أما المتعاطون فإن معرفتنا بهم جاءت من خلال العيادة النفسية وليس من خلال عيادة الإدمان فمتعاطى الأعشاب الشعبية قلما يرى نفسه مدمناً فى حاجة إلى علاج ، وكذلك ذووه الذين لا يضيقون به ، لا بعبادته التى لا تؤثر على سلوكه فى إتجاه العنف كما يحدث فى الخمر وعلى مخه فى إتجاه التدهور ولا على صحته . فالمتعاطى كما عرفنا ، كثيراً ما نجد عنده صفات شخصية جيدة يحسد عليها . فمن صفاته الجيدة أنه خفيف الظل ، طيب القلب ، دمث الخلق ، مبدع الفكر ، باحث عن الحقيقة ، صادق القول ، عميق الإحساس ، ثاقب النظرة ، ناهم للنفس وللغير وصفات أخرى .

اننا نسعى إلى نقل وجهة نظر هؤلاء المقهورين والممنوعين من التعبير والمدانين من الصفوة الاجتماعية بأنهم خارجون عن القانون أو منحرفون منحلون أو مرضى نفسون . وهى إدانة ربما لها وظيفة نفسية تحمى أصحابها من النظر إلى داخلهم ومواجهة الجرم والفسق والانحلال والمرض الكامن بداخلهم . فيلجئون إلى حيلة الاسقاط بأن ينكروا أن بهم عيوباً ثم يسقطون تلك العيوب على غيرهم ويوعزونها إليهم . وهم لا يعلمون أن عيوبهم مكشوفة ومفضوحة كمن أخفى وجهه بجلبابه فأظهر عورته .

وفوق هذا فإن هؤلاء لا يكتفون بالافتراء على الضحايا والمدانين بالانضمام إلى الغوغاء والمشاركة فى اثارة الشهوات السادية فى تعذيب الآخرين ، ولكنهم أيضاً يستديرون إلى كل من حاول أن ينصف المستضعفين فى محاولة لتأكيد أن للحقيقة وجها آخر ، وأن للمظلوم المدان بالجنون أو الانحراف أو الانحلال أو الإجرام وجهة نظر لا بد من إحترامها

واحترامها ضرورى إذا كنا ندعى أننا نريد إصلاحه . أن المدمن لا يمكن هدايته بإدانته وتجريحه . والمجتمع لن يصلح إدمان إذا كان فوق هذا يدين من يسعى لفهم المدمنين ويرحمهم ولا يشترك فى الإدانة إنما يحاول بإخلاص أن يصلح بجلد وصبر بالطريق الصعب الطويل وبدون حماس مفتعل أو إدعاء .

أنهم لا يكتفون بالسكوت على الفاسق إذا جاءهم بنبأ ولكن يسمعونه، ويشجعونه . وبهذا يشجعون الفسق والوشاية والوقيعة بين الناس . و بإسم التبيان والتحقق يقومون بنصيبهم فى الفسق والتشهير والتشويه والتجريح . والذى يدعو للأسى أن هؤلاء يتربعون فى مواقع سلطة إدارية وتأثير تربوى على قطاع لا بأس به من الشباب . حبذا لو تحلوا ببعض أخلاقيات من يدينوهم بالفساد فى الأرض أو الانحراف .

ماذا يقول هؤلاء المستضعفون ليبرروا ما يفعلون وليقاوموا أولى الأمر وأولى العلم والافتاء ؟ أنهم يقولوا : فى الخمر نص واضح وصريح . وما عدا ذلك فإنه محرم بالقياس وهو أن « كل مسكر خمر وكل خمر حرام» وكذلك أن « ما أسكر كثيره فقليله حرام » (أحاديث نبوية) ولكننا بحكم الخبرة والممارسة ، (وربما أيدنا العلم فى بعض مما عرفناه) ، نعلم أن « المخدرات » ليست مجموعة واحدة لها نفس المفعول . فهناك المهدئات والتى منها الخمر وتشمل الأقراص المهدئة والمنومة المخلقة ، والمذيبات العضوية (البنزين والاسيتون مثلا) ، ومشتقات الأفيون وشبيهاتها المخلقة. وهناك المنشطات وتشمل الكافيين (فى القهوة والشاى) ومشتقات الامفيتامين والقات والكوكايين ، وهناك مجموعة بينية وهى الموسعات

الوعى وتبدأ بجوزة الطيب ثم الحشيش ثم العقاقير المهلوسة الأقوى مثل الميسكالين والسيلوسايبين والـ ال . اس . دى L. S. D أن العنصر المشترك الوحيد بينها جميعاً أنها مواد مؤثرة على الوعى من خلال تأثيرها على المخ . ولكن نوع التأثير يختلف تماماً . فكيف يمكن إعتبارها جميعاً ضمن مجموعة واحدة وهى « المخدرات » فى واقع الأمر فإن صفة التخدير لا تنطبق ألا على مجموعة مشتقات الأفيون والمواد المخلقة الشبيهة بها ، أما المسكرات فهى تنطبق على الخمر والأقراص المهدئة والمنومة .

فإذا كان التحريم على أساس المفعول المسكر فإنه بالطبع لن ينطبق إلا على مجموعة المهدئات دون غيرها . أما إذا كان المقصود بالسكر هو أى تأثير يغير من حالة الوعى فإنه بالطبع سوف ينطبق على كل الأصناف .

ولكن هنا تظهر مشكلة وهى أنه بتطبيق مبدأ أن ما كان كثيره مسكر فقليله حرام فسوف نجد أنفسنا بصدد تحريم القهوة والشاى والتبغ وغير ذلك بل قد نحرم المياة والهواء والطعام لان الاكثار منها يؤثر على الوعى فعلا .

هنا قد يقال أن العبرة بنية السكر . فى هذه الحالة يمكن أن يكون القليل من أى من هذه المواد حلال إذ أن الغرض من تناولها فى هذه الحالة يكون بغية العلاج أو التهدئة أو التنشيط وليس السكر . أى أن الذى يأخذ قرصاً منوماً بإرشاد طبيب غير الذى يأخذ بدون إرشاد وبهدف علاج عرض الارق أو الذى يأخذه خلسة وبهدف السكر أو الهروب . وهو أمر يمكن تصور تطبيقه فعلا فيما يتعلق بأكثرية العقاقير الطبية المنظم تداولها

مثل المورفين والمنبهات وأخيراً المهدئات والمنومات المخلقة . فهذه لا تمنع ولا تحرم دينياً أو قانونياً أو أخلاقياً طالما تؤخذ بإشراف طبي وبهدف العلاج . ولكنها محرمة . ومحرمة فى غير هذا الظرف . ولكن المشكلة تأتى عند الاستخدام الشائع للمهدئات من قبل الكثير من المرضى . فإن الظروف الاقتصادية لا تيسر الاشراف الطبي المستمر لكثير من المواطنين . فترى هل يسمح فى هذه الحالات بأن يقوم الصيادلة بصرف هذه العقاقير ؟ فإذا كان نعم فلم لا يكون للمرضى ، الذين هم أعلم بحالاتهم ، نفس الحق ؟ وعندئذ سوف تبدأ المشكلة وهى متى يكون الفرد مريضاً يبحث عن تخفيف مؤقت لاعراضه ومتى يكون مدمناً هارباً أو باحثاً عن لذة فورية أو منتحراً .

أما المبدأ الثالث — عدا مبدأى « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » و « ما أسكر كثيره فقليله حرام » — فهو أن « لا ضرر ولا ضرار » . فإذا كان القياس على هذا المبدأ فالأولى أن ينطبق على تلك المواد التى ثبت ضررها الطبي بلا جدال وهى من الناحية الكمية (أى على أساس عدد المصابين صحياً فى العالم) تبدأ بالخمر والتبغ قبل « المخدرات » . فالاضرار الطبية لهذه العقاقير الممنوعة أقل بكثير من اضرار الخمر والتبغ ، بل والاضرار الاقتصادية والاجتماعية كذلك . وإذا كان هناك أضرار ترتبط بهذه العقاقير الممنوعة فإنه يمكن إرجاع الكثير منها إلى كونها ممنوعة مثلا الاضرار الصحية المرتبطة بتعاطى المخدرات عن طريق الحقن أغلبها يرتبط بظروف القذارة المترتبة على السرية التى يتم تعاطى هذه الحقن فيها . أما أضرار تدخينها فهى تكاد تقتصر على إحتمالات العدوى من الاستخدام المتعدد لنفسى المبسم (فى الجوزة أو الشيشة) وهى قليلة ،

وكذلك الضرر الاجتماعى والاقتصادى المرتبط بالضبط والإدانة والحبس والذى يفوق أى ضرر طبى مرتبط بالتعاطى . وهذا أيضاً قليل بالمقارنة مع عدد حالات التعاطى فعلا . وغالباً ما يكون الضبط والادانة والسجن له إرتباط بملابسات أخرى غير التعاطى مثل الصدفة أو الوشاية أو التعمد فى حالة عدم الرضا عن شخص ما سياسياً (أو حسب التهديد الشائع « أسكت لاحسن يلبسولك تهمة مخدرات » .

الضرر والضرار إذا خواص ترتبط بالمتعاطى ولكنها بالمثل ترتبط بالمجتمع ككل الذى يروج التبغ ويبيح الخمر ويدين أصحاب الاتجاهات السياسية والفكرية المتحررة ويقمع الحرية . المجتمع مذنب ومن كان خطاءاً فليس من حقه أن يرجم المخطىء بحجر . الأولى أن يعترف الاثنان بخطئهما فى تواضع وأن يمد كل منهما يده الآخر بهدف التعاون فى سبيل الصلاح والإصلاح .

ان هذه الحقائق يراها المتعاطى ويراها المروج . ولا شك أن هناك من المتعاطين ممن انحرفت حالته فصار منهاراً متدهوراً يبعث على الشفقة بدلا من الاستياء له . كما أنه قد يوجد بين المروجين من هو مجرم وسفاح . ولكن الحالتين هم قلة والكثير من هؤلاء بشر طيبون مخلصون ومحترمون ، على أسوأ الفروض يستحقون الرحمة ، حتى ولو لم يستحقوا التشجيع . ويحتاجون الهداية أكثر مما يحتاجون العقاب والتهديد والوعيد . ألا أننا نبسمل بصفات الرحمة « بسم الله الرحمن الرحيم » ؟ فماذا الذى دعانا لأن نضفى على الإسلام صفات لا تمت له ؟ فيتمسح به الطاغية والفاسد والفاجر والارهابى والمنحل ؟

أننا نريد علاجاً لمشكلة الإدمان . كيف نعالج من ندينه مقدماً ونجرمه ونسبه ونحتقره ؟ كيف يثق فينا ؟ بل فى الأغلب فإنه فى داخله يرد لنا الازدراء بازدراء مضاد ولكنه مغلوب على أمره فلا يستطيع أن يجهر به . ولكنه فى داخله يزدرينا بمثلما نزدريه .

أما التهديد فهو يهددنا بمثل ما نهدده وكم الذين أعدموا من المهربين لا يفوق كم الذين قتلوا من رجال الشرطة الأمناء والمخلصين ولكن المضللين لأنهم انقادوا لتنفيذ سياسة مجتمع يتعامى عن الحلول الجذرية ويفتتن بالأعمال الدراماتيكية .

لقد أتيحت للكاتب فرصة أن يتحدث فى صفوة الصفوة من قادة نساء مصر . وكم كان الأسى والدهشة حينما انتبه لحماسهن بالتصفيق حينما جاءت سيرة إعدام مجرمى المخدرات . واحتار أمره فى تفسير الظاهرة . فتشاور مع صديق سياسى تبين أنه فاقه فى التحليل النفسى حينما قال : ولم لا . فإن تجار المخدرات رجال . فلن يصيبهن شىء إلا راحة التخلص منهم وإلى هذا وصل بنا التعامى والاسقاط . إلى هذا فقدت أمهات الصفوة منا الرحمة ، ورضع أطفالنا المرارة غالباً من غير ثدى حنون ، دب من زجاجة أو أغذية معلبة أو أقراص غذاء مخلقة وفيتامينات ومقويات . أين أمنا الريفية ؟ أين أمنا المصرية لا عجب إذا أن ينشأ هؤلاء الأطفال ليصيروا طالبى مواد تعوضهم عن فقد الحب والرقة والدفء . مصيرهم إدمان لأن نشأتهم رد فعل للادمان .

٥ — العقاب والثواب والقدوة

يتعلم الإنسان بأكثر من وسيلة . فهو يجرب الفعل . وإذا ارتبط الفعل بألم توقف تكراره . وإذا ارتبط بلذة كرره . فالإنسان يتجنب الألم ويسعى للذة . هذه هي دوافعه الغريزية الذاتية .

ولكن الغريزة ليست مجرد دافع ينبع من الداخل في فراغ. فهي ترتبط بموضوع خارجي يرتبط بإشباعها . والموضوع الخارجي في ظل الحياة الأسرية والاجتماعية التي يعيشها الإنسان هو إنسان آخر . هذا الإنسان الآخر هو الأم بداية ثم بقية أفراد الأسرة والمجتمع . الآخر موضوع للاشباع والحرمان . ولكنه أيضاً شخص . والشخص قدوة يتعلم منها الطفل . الطفل يبدأ بمحاكاتها آلياً ثم باستدماجها أي إدخالها ضمن تركيبة شخصيته ثم بالتوحد معها . في المحاكاة يكون الموضوع خارجياً . في الاستدماج يكون الموضوع داخلياً ولكنه ما زال « آخر » بالداخل . في التوحد تلتقي صفة الـ « آخر » عن الموضوع الداخلي ويكون جزءاً متدمجاً تماماً مع الـ « أنا » .

الإنسان البدائي يعيش في خطر أي في حالة إجتناب الألم وخوف منه . فإذا اطمأن من خوف بحث عن اللذة أي عن الاشباع . فإذا أطعم من جوع تمكن من حب الآخر لذاته أي عبادة رب هذا البيت . أي أنه يستطيع أن يتعامل مع الآخر لذاته وليس بصفته موضوعاً لإشباع غزيرة . الآخر يصير وجوداً مستقلا وليس مجرد شيء . أي وجوداً في حد ذاته وليس وجوداً من أجل ذاته .

معنى هذا أن التعليم البدائى يعتمد على التحذير من الألم . بالتهديد والوعيد والتلويح بالعقاب . هو تعليم بدائى يصلح للحلم البدائى وللطفل البدائى . وهو يخاطب أدنى ما فى الإنسان . ولا يحثه على الارتقاء والنمو بقدر مايسعى إلى وقفة عن التدهور . أنه يفترض الخوف والجبن فى الإنسان كما يفترض الميل التدميرى الذاتى فيه . أى يتعامل مع ذلك الجانب فى الإنسان الذى يدفعه نحو تدمير ذاته . وهو ما يمكن إفتراض وجود أساس غريزى له وهو غريزة الموت والتى تأخذ شكل المازوخية أو الميل للألم الذاتى . يقابله ايلام الآخر ويعرف بالسادية) .

فإذا ما ارتقى التعليم خاطب فى الإنسان رغبته الغريزية فى الميل إلى اللذة . أنها ما زالت رغبة غريزية وتدفع الإنسان إلى أن يبحث عما يحقق له اللذة من خلال الاشباع لحاجياته الغريزية . هذا هو مبدأ الثواب (مقابل العقاب) فى التعليم ، أن يرغب الإنسان فى الاتيان بسلوك ما بغية الحصول على ثواب على هيئة إشباع لرغبة تحقق لذة .

أما أرقى وسائل التعليم فهى تلك التى تعتمد على القدوة . الإنسان الذى يتعامل مع الآخر كإنسان وليس كمجرد أداة يحقق بواسطتها إجتناب الألم وتحقيق اللذة ، يحاكى هذا الإنسان . وهو يحاكيه فى وجوده . فإذا ما دام الوجود فى الذاكرة فهو يحاكيه فى غيابه . ويبدأ بهذا عملية الاستدماج . فهو يتذكر الآخر وما قد يتحقق له بواسطته من اجتناب للألم وتحقيق للذة إذا ما حاكاه . وبهذا يستمر الآخر ، رغم غيابه ، موجوداً بداخله ولكن ككيان غريب فى تركيبة النفس ولكن مع

الرقى فى العلاقة يتم الدمج الـكامل الداخلى بين هذا الـكيان وكيان النفس وتصبحا الآخر والأنا واحداً . وهذه هى عملية التوحد .

وسيلتا العقاب والثواب أو التهديد والترغيب تعتمدان إلى حد كبير على التعلم بالتلقين وبالتشريط . فالخبرة تنتقل من واحد إلى آخر . ولذا لامفر من اللاتماثل أو اللاسيمترية فى العلاقة . فهناك طرف أعلم من طرف ، أو أكبر منه أو أقوى أو أفضل . ويكتسب هذا الطرف حقاً فى فرض إرادته على المتلقى ويرضخ المتلقى له .

أما التعلم بالقدوة فهو يعتمد على الاحترام المتبادل والتماثل أو السيمترية أو الندية فى العلاقة . أى يعتمد على وجود علاقة إنسان بإنسان وليس إنسان بشىء أو بتعبير الفيلسوف مارتن بوبر « أنا — أنت » وليس « أنا — هذا » فأنا أفعل ما أفعل وأتحمل مسئولية فعله . وأحترم حقك فى أن تفعل ما تفعل وتتحمل مسئولية فعلك . فلا أنا أفضل منك وبالتالى فلست أنت أفضل منى . لا أعبد ما تعبد ولا أنا عابد ما عبدت . لك دينك ولى دين .

فإذا ما كان ما أفعل هو الحق وأنت كإنسان مثلى تبحث عن الحق فالأغلب أنك سوف تفعل ما أفعل دون أن أفرضه عليك . والعكس صحيح . ولهذا فأنا لا أتعصب لموقفى ولا أحاول فرضه عليك . بل أنى أكون بإخلاص وصدق منفتحاً لأن أتأثر أنا بك مثلما تتأثر أنت بى . ومن خلال هذا الصدق وهذه المرونة وهذا التقبل لك فالمحتمل أن تفعل أنت مثلى ، تتقبلنى وتنفتح للتفاعل معى بما يؤثر عليك بمثلما يؤثر على .

وإذا كنت أنا إنساناً متـكاملا ومتسقاً مع نفسى ومتفرد ومحققاً لذاتى

فإننى فى الأغلب سوف أفعل ما أقول وأقول ما أفعل دون تناقض بينهما . فلن أقول شيئاً وأفعل غيره . إذ يقع الكثيرون فى هذا الخطأ . وإذا كان ما يحدث يحدث بوعى وتعمد فإننا نصفه بالنفاق . يقولون ما لا يفعلون . فهم يتبعهم الغاوون ، وفى كل واد يهيمون . ولكن الأغلب هو ذلك التناقض الذى يحدث بلا وعى فيقول المرء شيئاً بينما يفعل عكسه . مثلا قد يصيح الأب فى إبنه قائلا : « لا تصيح » أنه يلقنه باللفظ ، ألا يصيح. ولكن سلوكه الفعلى حتى أثناء هذه المحاولة ، يشكل قدوة للطفل بأن يصيح. الطفل فى هذه الحالة يتلقى الرسالة ونقيضها . وعندئذ يصاب بالارتباك . فهو إذا صاح خالف أمر أبيه الواعى . وإذا لم يصيح خالف القدوة التى يمثلها أبوه (دون أن يعى) . أن هذا المأزق الذى يئول إليه الطفل يوصف بأنه « رباط مزدوج » double bind وكثيراً ما يؤدى ذلك إلى إرتباك داخلى فى نفس الطفل ويمكن أن يصل إلى حد الجنون .

فإذا تمادى المعلم فى هذه الحالة فى الاحباط لأنه يصاب أيضاً بالارتباك نتيجة لعدم استجابة المتلقى لتعاليمه حسب ما يعيها فإنه قد يلجأ إلى الوسائل البدائية بشكل مطرد . فهو يلقن الطفل ويرغبه ثم يهدده ثم يعاقبه فعلا ثم يضاعف العقوبة . ويشكو انه ها هو ذا يعاقب بقسوة ولكن بلا نتيجة. الحقيقة أنه الفشل حتمى . فهو يلجأ إلى العقاب لأسباب ذاتية وهى فشله فى أن يكون قدوة المتلقى . ولجوؤه للعقاب ثم القسوة لأنه محبط وليس لأن الظرف الموضوعى يحتاجه . هناك دواعى للعقاب ، نعم . ولكن صاحبنا يعاقب بدون داعى ويعاقب فقط لأنه محبط ومرتبك ولا يدرى ماذا يفعل. أنه فقد صوابه . وقد يتمادى ليصل إلى القتل . وكم من جرائم عنف ترتكب

بإسم التربية والحرص على المصلحة فما الذى يحدث فى مجال المخدرات ؟ كيف يتعلمها الناس وكيف يتعلمون الاقلاع عنها .

ان طريق الاستسهال أن نتعامى عن الأخطاء والمشاكل حتى إذا ما تفاقمت صرخنا . وإذا صرخنا ضربنا وبترنا وقسونا متخبطين . نفرغ احباطنا أكثر مما نتعامل مع الظاهرة بتعقل . فنفقد بذلك القدرة على التعامل مع الواقع ، ومع الأسباب والجذور . ونطلب الحلول العاجلة والمثيرة . نريد ما نريد الآن وفوراً . فتفشل الحلول بالطبع . وبدلا من أن نعيد النظر فيها ، نطلب المزيد منها . حتى تفقد المفعول ولكننا نستمر ، بل لا نستطيع التوقف . لقد أدمنا . هربنا من الواقع . أردنا الحلول الفورية . وجدنا اللذة فى ايلام آخر (كبش فداء) فقد الايلام المفعول فأكثرنا منه بدلا من البحث عن بديل . أردنا فلم نشبع فأردنا المزيد . صار الايلام لذة ، فاستمر التعلق به . تعودنا عليه . دمرنا العدو والصديق ودخلنا فى زمرة الدمار .

هكذا نحن الاسوياء . داوينا حتى صار الدواء داء . خففنا سموم الكيمياء فاستبدلنا البلاء ببلاء . العقاب لغة الغباء . المدمن أصلا يريد الفناء . أضل السبيل . وصار عليلا . وكأن لم يكفه بيده عقابه فجثونا عليه وأكلنا خرابه . وقلنا مريض ، وقلنا مجرم ، فأربكناه . ماذا نريد ؟ ماذا مفعول العقاب ؟ وحتى مفعول الثواب ؟ صاحب القدوة غاب . بق صراع الغاب . وقتل الآباء أبناء . ضاعت الأسرة . وضاعت العشرة . فى سبيل قشرة ، وسبيل ادعاء . ضاع الهناء . وضاع الصفاء .

ولننظر إلى تأثير العقوبة فى ضوء علم نفس التعلم وفلسفة القانون الجنائى.

كما رأينا فإن التركيز على العقاب كوسيلة للتعليم يعكس بدائية المعلم والمتلقى على السواء. والطيبون للطيبات والخبيثون للخبيثات. والطيور على أشكالها تقع. «ورزق الهبل على المجانين». ان اصرارنا على التشريع العقابى والمزايدة فى تشديد العقاب إنما هو إدانة لنا أكثر مما هو إدانة لمن نعاقبه. وهو ترسيخ لقصورنا أكثر مما هو علاج لقصور من ندين. أنه يدخلنا فى حلقة مفرغة: الزيادة فى العقاب تتحول إلى عادة فتفقد التأثير فنطلب المزيد حتى ينتهى بنا الأمر إلى التدمير.

التهديد بالعقاب يفترض ضمناً أن المخالف سوف يرتكب الاثم. إذا قلت وكررت: «اياك والمخدرات. إياك والإدمان. أبعد عن هذا. ابعد عن ذاك. لا تفعل. لا تقرب. ممنوع. حرام. عيب» فأنى عملا أذكر المتلقى أنه من الطبيعى أن يفعل الاثم. وأنه لولا رقابتى عليه وتهديدى له لفعل. أنى أؤكد له بشكل يكاد يكون مباشراً أنه فى الأصل آثم وشرير وأنا الذى أحميه. ولذلك قد يفعل ما أمنعه منه.

ماذا فعل أبونا آدم حينما أمره خالقه تعالى بألا يأكل من هذا؟ كان هذا شغله الشاغل. صار الممنوع مرغوباً حتى عصى. نستطيع أن نشاهدها فى تعاملاتنا اليومية.

إذا أضفنا إلى ذلك أنه فى سيكولوجية العقاب تكفير عن ذنب. والتكفير عن الذنب لا ينتهى دائماً بالنهاية السعيدة وهى التوبة والصلاح.

ولكن كثيراً ما يكون العكس صحيحاً . لقد أرحنا ضمير المذنب . وصار نظيفاً بلا ذنب . و بمكنه الآن أن يرتكب ذنباً من جديد . ألم يدفع دينه بالعقاب ؟ فلم لا يعود للسلف ؟ هكذا كثير من المذنبين . يرتكب الذنب. وينتظر العقاب حتى يرتاح ضميره لكن يرتكبه مرة أخرى . ألم يكن راسبوتين المتصوف الزنديق هكذا ؟ ويفعلها جهاراً و بوجاحة ؟ يزنى ويسكر ويطلب الغفران (فهو لا يجد متعة فى الغفران ألا إذا كان قد غرق فى الذنوب) وبعدها يعود إلى العربدة بنفس الإخلاص الذى طلب به الغفران . وكذلك فعل راسكولنيكوف فى قصة دوستويفسكى الشهيرة « الجريمة والعقاب » . ارتكب الجريمة المثالية التى لا يمكن أن تثبت ألا بالاعتراف. وأخذ يحوم حول المحقق حتى خرج منه الاعتراف تلبية لرغبته الدفينة فى العقاب ، ولكى يستريح ضميره الذى كان يؤرقه .

نعم فى كثير من الأحيان يرتكب المذنب الجرم طلباً للعقاب . وأحياناً يكون العقاب وظيفته أن يخفف تأنيب الضمير لذنب آخر أغلبه وهمى وفى أعماق نفس المذنب ولم يتم فى الواقع . بل كثيراً ما نجد أكثر من شخص يعترفون بارتكاب جريمة واحدة أعلن أنها لمجهول . ويحتار المحقق لوجود إستحالة أن يرتكب هذه الجريمة أكثر من شخص واحد . (مسكين بالطبع لو كان المعترف المريض هو الوحيد . فقد يدان باعترافه) .

متى يمكن إقامة حد الزنا ؟ أن الذى يرتكبه فى حضرة أربعة شهود غالباً مجنون أو متخلف عقلياً أو مريض بالاستعراضية . أما الذى يعترف ويصر على الاعتراف فقد يكون مريضاً بالحالة النفسية المشار إليها . ويندر أن يكون الدافع دينياً صحيحاً . فهل يعاقب المريض ؟

وفى حالة المخدرات ، من الذى يضبط ويعاقبه ؟ هل هو الذى أذنب ؟ أم هى قلة ؟ وما هى طبيعة هذه القلة ؟ لقد استخلص العلماء من بحث فيه مقارنة بين مدمنى الحشيش بالسجن وغيرهم من المسجونين ، أن الحشيش يرتبط باضطرابات فى العقل والشخصية . والأجدر بنا أن نسأل هل هو الحشيش أم هى نوعية الشخص الذى يضبط ويدان ؟ أم هى نوعية الشخص الذى إذا ما ظلم من المجتمع رد الظلم بالجرم والآخر رده بإيذاء نفسه . فالنوع الذى يجرم غالباً يتمتع بصفات فى الشخصية مختلفة عن الشخص الذى يهرب أو يؤذى نفسه . أى أنه من بين المظلومين فاننا نتوقع أن تكون الشخصية التى توجه عدوانها إلى الخارج ذات صفات أكثر إيجابية من تلك التى توجه عدوانها إلى الداخل فيكون إختيار الحشيش بدل الجريمة نتيجة وليس سبب فى وجود سمات شخصية فى المذنب . كما أنه فى ضوء مدى انتشار الحشيش فى المجتمع (الذى يفوق بكثير إنتشار الجريمة) فغالباً سوف نجد أن الذين يضبطون ويدانون هم الأقل حظاً فى سمات العقل والشخصية .

وهناك بعد آخر فى سيكولوجية العقاب . أن الذى يرتكب جريمة عقوبتها شديدة مثله مثل المقامر . يفعل الفعل وهو يعلم أن هناك إحتمال ما أن يضبط وإذا ضبط فهناك إحتمال أن يدان وإذا أدين فهناك إحتمالا أن يتم تنفيذ العقاب وسط هذه الاحتمالات نجد متعة المقامر ولاعب الروليت الروسى (هى لعبة يضع الشخص فيها فردا أو ريفولفر به رصاصة واحدة فقط بعد إدارة الساقية الفارغة (ما عدا تلك الرصاصة) ويضرب نفسه . وهناك إحتمال أن يصاب وسط ستة إحتمالات . فإذا لم يصاب

جاءته نشوة الميلاد الجديد . وإذا أصيب مات وانتفى وجوده بما لا يترك فرصة للندم أو الألم) : أنه يجازف لأنه يعلم أنه هناك إحتمالا للنجاة أكثر منه للوقوع .

لقد ثبت علمياً أن العقاب الصارم الذى لا يطبق أقل فاعلية فى الردع عن العقاب الخفيف الذى ينفذ . علاوة على أن عدم تنفيذ العقاب الصارم يولد لدى الناس حالة تبلد تجاه العقاب واستهتاراً بالقانون أى أنه لو كان هناك عقاب مهما كان خفيفاً ولكن ينفذ فى كل الأحوال تقريبا فسوف يمتنع الناس إتيان السلوك الممنوع عما هو الحال فيما لو كان العقاب شديداً ولكن نادر التطبيق . والمثل واضح فى حالة المخدرات . فإن تشديد العقوبة فى جرائم المخدرات لم تؤد إلى إنخفاض الظاهرة . بل وضعت العدالة فى موقف يجعلها تفضل أن تعفو عن متهم خطأ ولا أن تظلم بريئاً خطأ . فالظلم هنا ثمنه حياة إنسان أو سجنه مؤبداً . والقاضى لا يستطيع أن يحمل ضميره مثل هذا العبء .

وإذا أخذنا عقوبة شرب الخمر فى الإسلام لوجدناها خفيفة بالمقارنة مع الإعدام أو السجن المؤبد بل أخف من السجن لأى مدة . فهى لا تتعدى الجلد بثمانين . ولا يطبق الإعدام ألا عند المعاودة المتكررة . كما أن شروط الضبط كما أقرها الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه أرقى فى إنسانيتها واحترامها لخصوصية المواطن مما يمارس اليوم حتى فى الدول المتباهية بالديمقراطية . فلا تجسس ولا دخول لبيت ألا من بابه ولابد من استئناس وتحية أهله أولا .

ألا أن الدول الغربية تزداد سماحة واحتراما لحقوق الإنسان وحقوق الله بينما نحن المسلمين نزداد إزلاقا فى إتجاه القمع والفوغائية (ولابد من الاعتراف أن مصر أفضل من غيرها فى هذا المجال) . فالمنادون بالتشدد يزدادون وبعضهم من يسيئون إستخدام الحرية والرفاهية على السواء ، ومن يبشون الفوضى والانحلال . فهو رد فعل طبيعى لإساءة إستخدام الحرية والرفاهية أن يعود الطغيان والتجويع المعتمد .

وفى مجال المخدرات فإننا نرى الدول الغربية تزداد سماحة فى التجريم إذ تخفف العقوبات وتميز بين الأصناف المختلفة . فالقنب ومشتقاته من العقاقير الخفيفة التى انخفضت العقوبة فيها إلى الجنحة ثم المخالفة وفى بعض البلاد (مثل أسبانيا وهولاندا) إباحة التعاطى رغم تحريم الاتجار . وفى المقابل فإنها تزداد عمقا وفهما للأسباب الجذرية للظاهرة وتسعى صابرة مثابرة للتغلب عليها . ولعل المثال على ذلك هو حالة فرنسا التى خططت منذ خمس وعشرون عاما لمقاومة الخمر على أسس الوقاية المتأنية ، بينما كانت بلاد أخرى تتعجل الحلول وتسفه التأنى الفرنسى . والنتيجة أن أصحاب الحلول العاجلة الدرامية ما زالوا بعد ربع قرن يعانون من المشكلة بنفس حجمها بينما فرنسا تقدمت ونجحت فى تخفيض نسبة سوء إستخدام الكحوليات .

أما نحن فنسعد بالتشريع ونطالب بالمزيد منه والتشديد فى العقوبات . (وكأن هناك عقوبة أشد من الإعدام والمؤبد) . وليس هذا بغريب فالأسباب الجذرية تكاد تكون واضحة والرغبة فى التعامى عنها تزداد

إلحاحاً . أننا نخشى التغيير بإسم الاستقرار ونخشى الثورة بإسم الإصلاح وسيادة القانون . ونكتفى بالشعارات البراقة دون معاناة العمل على الممارسه والتطبيق .

ولعل فى ما نكرهه خير لنا ولا نعلم . فإن مثل هذا التردد على مستوى المجتمع ككل يدع المجال للمبادرات من قبل بعض الأفراد والجماعات . فنشاهد بعض الشباب المسلم يتطوع لمواجهة أصحاب الكيف العجيب الذين لا يجدون غضاضة فى التدخين فى علب سردين النقل العام دون مراعاة لما يتسببون فيه من تسميم الجو السام أصلا فى المساحة الضيقة والمزدحمة التى تتاح هناك ودون مراعاة لأن نار لفافات التبغ التى يحملونها بين شفاههم قد تحرق جسداً أو ملابس من يلاصقهم . أنهم يتطوعون وهم لا يملكون سلطة قانون ولكن معتمدين على إيمانهم واستجابة الجمهور الحسنة للموعظة الحسنة التى تتم بلا غلاظة ولا فظاظة . أن هذه المبادرات الشعبية هى البديل الحقيقى لما يعجز عنه المجتمع ككل من خلال أجهزة التشريع والتنفيذ الخاص به ، وخاصة لغياب القدوة .

فهذه لجنة خاصة بموضوع المخدرات فى جهاز التشريع الرئيسى للمجتمع ، وهو مجلس الشعب ، تجتمع والدخان يملأ قاعتها ، بما جعل أحد الأفراد يلفت النظر إلى الظاهرة ويتمنى أن تكون اللجنة قدوة ، فكيف نطالب الناس بالاقلاع عن الكيف ونحن لا نستطيع أن نكبح أمزجتنا لنكون مثلا وقدوة ؟ كيف للطبيب أن يطالب من مريضه أن يقلع عن التدخين ولفافة التبغ فى فمه ؟ كيف نعدم تاجر الحشيش ونسجن متعاطيه بينما تجار السم الأول وأكبر قاتل للناس علاوة على متعاطيه يرتعون ويلعبون

ويمشون فى الأرض مرحاً فى إختيال وتفاخر وبلا قصد ، مصعرين خدودهم للناس رافعين أصواتهم دون غض . ؟

أن هذا التناقض بين أقوالنا وأفعالنا وهذا النفاق الذى يجعلنا : نكيل بمكيالين — نرفع مدمناً ونصفع آخر ، نروج تجارة علناً ونمنع تجارة أخرى (على الأقل نمنعها علنا حتى ولو شاركنا فيها سراً) هو الذى يتسبب فى إرباك الجمهور بما يجعله يضرب بقوانين المجتمع عرض الحائط .

وهنا لابد لنا من توضيح حتى لا يصطاد أصحاب النفوس الصغيرة ، من ذوى الخدود المصعرة الملمعة ، فى الماء العكر : وهم أصحاب العقول الصغيرة التى تخرج بالاستنتاجات الكبيرة المبنية على الخلط بين موقف الرحمة والتسيب ، والسلام والاستسلام ، ونقد الذات ، وازدرائها ، فيفسرون هذا الكلام على أنه دعوة لإباحة المخدرات . ويزدادون عبقرية حينما يربطون بين موقف الرحمة والإيمان بالسلام ويستنتجون أن هذه الدعوة هدفها خدمة إسرائيل والصهيونية والاستعمار ! عجبى على عقول صدقت أنها عبقرية لا لشيء ألا لأن ظروف وظيفية سمحت لها أن ترقى فى غفلة من الزمن إلى مواقع إدارية يتعفف عنها فى زماننا هذا كل عاقل وكل نزيه . عقول صغيرة فى نفوس أصغر يسكرها السلطان بأسوأ مما تسكر الخمر ، ويذهب بالبقية الصغيرة الباقية منها وهى أصلا فى صغرها لا تتحمل الانتقاص .

من أجلهم هذا الاستيضاح : هذه ليست دعوة لإباحة ، بل دعوة إلى تحريم . وهو تحريم لكل ما لا ينفع الناس ، ولكل نزعة للانزلاق

فى المتع الحسيه واشباع الجسد والتعلق بالأمور الدنيا . إذا كان فيها دعوة فهى دعوة ضد جميع الصغائر والكماليات بما فى ذلك المياه الغازية والشاى والقهوة والدخان . وإذا كان يبدو فيها ما قد يشير إلى أنه إباحة فليس ذلك ألا رياضة عقل تحث العقول المستكنة على التفكير وإعادة النظر فى كل الأمور ، بما يقرب من الاستفزاز وهز العقول بصدمها . وإذا كان فيها دعوة فهى دعوة إلى متعة الروح ، إلى الهناء بلا كيمياء . ترى هل يفهمون ؟ قد لا ينفع فى أمرهم تكرار . فلتسر القافلة وليعوى أصحاب الخناجر ، وتنفث السم أنياب الأفاعى .

حينما يصرخ السفيه : حوش ! إدمان ! سوف يجد اللسان البارز قائلا : لو أحس السفيه بوزره لنزف الدم من سفله . حينما يركب مثير الشغب موجة الاحباط والضياع ويمارس الجهل بإسم الإسلام سوف يجد مؤمناً يجتنبه ويسير وحده فى طريق الإيمان ، لا يخاف وحدة ولا إستشهاد . وهذا قدر العاقلين فى عصر غلبة السفهاء .

وسوف نجد المدافعين عن النهج العقابى يسوقون أمثلة من المجتمعات التى تسير على هذا النهج . فيشيرون إلى حيث تقطع أيادى السارقين بما أدى إلى إنتفاء السرقة . فأنت تستطيع أن تذهب إلى الصلاة (أو تضطر وألا ضربت بالعصاة) وتترك دكانتك مفتوحة بلا حراسة فتعود لتجدها سالمة . ولكن هناك مغالطة كبيرة فى هذا المثال . وهى أن هذه العقوبة الشديدة التى تمارس بإسم الإسلام ، لم تر تطبيقا كهذا فى فجر الإسلام . بل أوقفها . الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما كانت تمر

الأمة بحالة ضيق يدفع الفقراء إلى السرقة من أجل الحصول على ضرورات الحياة . وما نشاهده اليوم ، وخاصة فى تلك النظم التى تدعى تطبيق الشريعة الإسلامية هو عكس هذا تماما . فالذى يعاقب هو اللص الصغير . والذى يفرض العقاب عليه هو اللص الكبير السارق للدولة برمتها . فمنذ متى فى الإسلام تسمى الأمم بأسماء الأسر ؟ (نصارى الغرب ، وليس المسلمون ، هم الذين يسمون المسلمين « محمديين ») ومنذ متى يحكمها من إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة بل لم يكتفوا بالحكم ولكن ملكوها إمتلاكا ؟ ومنذ متى وفرق الإنسان بين أنصار ومهاجرين أو قرشيين وغيرهم أو أعجميين وعرب أو سكان وديان وبدو ؟ بل أن أمل الانسانية فى أن تشربها الحضارة الإسلامية (حسب ما عبر عنه المؤرخ العالمى آرنولد توينبى) لهو فى قدرة الإسلام على منع رذيلتين الخمر والعنصرية . فالحضارة الإسلامية لم تفرق بين مسلم وآخر ألا بالتقوى وجعلت لأهل الكتاب مكانتهم فيها وطلبت العلم ولو فى الصين ولم تعرف تعصباً دينياً أو تفرقة عنصرية . أن الإسلام الثروى الحديث نجح بلا شك فى ايهام الكثيرين ، وخاصة ممن ولوا وجوههم شطر ما وراء الحجر المقدس من ذهب أسود أو أصفر ، أنه حامى حمى الإسلام . فهو يملك الذهب الذى يغرى المحتاجين والطامعين على السواء . ويشترى به السيف لا لإرهاب أحد إلا فقراء المسلمين وطيبيهم من شعبه ، أو من الشعوب الفقيرة المجاورة ، وكل هذا تحت واجهة تطبيق الشريعة الإسلامية . وكأن الشريعة الإسلامية لا يوجد فيها ألا الحدود . فتناسوا أن المسلم يجب ألا ينام مشبعا طالما هناك أخ له يجوع . وأن لا فرق لأعجمى على عربى ألا بالتقوى ، وأن الله جعلنا شعوبا وقبائل لنتعارف لا لنتقاتل . وأن الأمر شورى

بيننا. وأن الإسلام إيمان وعمل الصالحات ، وشئون آخرة ودنيا معاً ، ولا كهنوت فيه ولا وسيط بين العبد وربه .

هذا الاتجاه الثردى المدعم للإسلام يستطيع اليوم أن يسكت الافواه بملئها أو إغرائها . ولذلك فهو يجد حليفه فى البعض من محافظى الإسلام الذين احتموا فى ظل شبه كهنوت يعطيهم مكانة مقابل المساندة بالفتاوى والتفسيرات التى تبرر لهؤلاء الأثرياء المستغلين طغيانهم وتخفى مفاسدهم التى يظنونها أن لا يراها أحد لأنهم رفعوا الجلابيب لتغطية الوجوه وما فعلوا ألا أن كشفوا العورات . أنهم ينفقون أموالا على بناء المساجد وطبع المصاحف وإضعافها على شراء الذمم والتوقيع بين المسلمين والتشهير بهم وأضعاف هذه على إستيراد السلع وما قد يتسلل معها من قيم تدعم الاستهلاك والاستمتاع الحسى لدرجة الفساد والانحلال . ولا يبقى ألا قليل للمدارس والجامعات والمستشفيات والمصانع .

لا عجب إذا أن يكون رد الفعل ضحالة فكرية ودينية تستتر وراء الشعارات الجوفاء ، ضحالة مضادة على هيئة ثورات تستتر وراء ذات الشعارات . فالإسلام الثروى الذى يستخدم الإسلام المحافظ لأغراضه يقابله الإسلام الثورى ومن هنا نجد الإرهابيين والطغاة ومدعى النبوة أو الإمامة لا يقدمون بديلا حقيقياً لتطبيق الإسلام ولكن مجرد الوجه الآخر للضحالة السائدة فى عصر الثروة والغرق فى اللذات الحسية والسعى وراء المال قبل السلطة والسلطة قبل المجد ، قالبين بذلك هرم القيم على قمته . إذ إنحدرت قيمة المجد أى المبادىء والقيم الروحية ، فسبقتها قيم السلطة

التى خضعت بدورها لقيم الملكية . فالسلاح الأول هو الذهب والذى يملك وينفق أغلبه لصالح المستغلين سواء من خارج الأمة الإسلامية أو من أبنائها الوسطاء الذى يتربعون على هرم الصفوة المستغلة داخلياً لجمهور المستضعفين . والسلاح الثانى هو السلطة التى صارت مجرد وسيلة للاثراء أو حماية الأثرياء الذين نهبوا أموال شعوبهم وهربوها خارج الأمة الإسلامية بما حطم ما بدأته من نهضة صناعية كما حاولت مصر وكادت تنجح . أو أنفقوها فى الداخل لقمع الشعوب وإطلاقها لتقاتل بعضها البعض ما دامت لا تمس الصفوة المالكة للثروة . فمن المستفيد بتقاتل الشباب المسلم فى العراق وإيران ؟ ومن المستفيد بانتحار الشباب بغية أعمال درامية لا يذهب ضحيتها من العدو الصلف المتسلط ألا أطفاله ونساؤه وعواجيزه ورجاله العزل من السلاح ؟ وينفقون المال والجهد لايهام الشعوب أن هؤلاء أبطال وشهداء . أنهم لا يستطيعون الإنفاق على الثورات فيستأجرون الإرهابيين والإرهاب . ويشينون ويشوهون الإسلام والمسلمين أمام العالم ويوقعون بين المسلمين . فلا عجب أن تسود هذه العقلية داخل حصون الإسلام المتبقية ، حتى فى معاقل العلم . فنجدها بدورها تدعم الوشاية والوقيعة وتتعطش للشكاوى الكيدية وتبحث عن أكباش تقتديهم لإرضاء أصحاب الثروة . وما أفضل أن يكون هذا الكبش من بين صفوف المستنيرين من المسلمين الذين لا يخشون سيف سلطان ولا يطمعون فى ذهبه . فيشوهون صورتهم ويبحثون لهم عن تهم جانبية لأنهم أعجز ، على المستوى الفكرى ، من أن يجادلوهم وأصغر من أن يحاوروهم . فيبحثون عن المخالفات الصغيرة ويشغلوهم بالتفاهات ويعوقهم بالعقبات البيروقراطية المقيمة . أنهم بعض محافظى الإسلام

من المتحجرين الذين فقدوا مصداقيتهم لدى الجمهور بل فقدوها لدى طلابهم وأبنائهم الذين كادوا يفتكون بهم لولا أن هربوا بجلدهم منكسي الرءوس بعد أن كانت مصعرة خدودهم يمشون فى الأرض مرحاً .

القمع لا يعالج مشاكل وإن كان يؤجل تفجرها ، يخفيها مؤقتاً . والقمع باسم الإسلام قد يؤجل الثورة المضادة لفترة أطول ولكنه قد يولد إنفجاراً يدق بدوره المسمار الأخير فى نعش الصحوة الإسلامية التى تكاد تؤد اليوم لصالح النشاط الحضارى الاستعمارى الغربى .

ان ما تحتاجه الصحوة الإسلامية اليوم لهو إجتهاد شجاع يخرج الفكر الإسلامى من سيطرة التخلف والاستغلال ويعيد للاسلام وجهه المتحرر المستنير المنصف للمستضعفين على حساب الملوك والمالكين والمستغلين الذين أذلوا أعزة أهل البلاد . وتحتاج إلى جهاد النفس وهو الجهاد الأكبر أكثر مما تحتاج إلى إنفجارات براقة سرعان ما يختفى ضوؤها ليحل محله ظلام حالك كمفعول « المخدرات » القوية السريعة التأثير . أن تغييب الوعى لا يقتصر على الكيمياء ولكنه يشمل كافة السبل الإخرى وأهمها تلك التى تخادع الناس باسم الإسلام .

مثلما يتيسر الهناء بلا كيمياء ، كذلك الغياب والغباء ينفشى بلا كيمياء . ويتم التغييب بواسطة توجيه الأنظار إلى الكيمياء وأثارة الضجة حولها ، لشغل الناس عن السموم الحقيقية من إدعاءات وأكاذيب وخدع تتستر وراء أزياء .

٦ — مداخل علاجية

تقوم الزوبعة حول الظاهرة . ويبادر كل صاحب رأى برأية . الطبيب يقول : فى دوائى شفاء . والشرطى يقول . فى عصاى الخلاص . والقاضى يقول : فى حكمى القضاء . والواعظ يقول : فى كلامى الملاذ . وهكذا يظن الجميع أنه لديه الحل السريع .

الجميع على حق إذا شكلوا فريقاً يدخل على الظاهرة من أبواب متعددة لا من باب واحد ، الله واحد والطرق إليه عديدة . الفيل فيل بذيله ورجله وأذنه وكل جزء من جسمه . ولكنه ليس ذيلا ولا رجلا ولا أذنا ولا أى جزء بعينه . والله ليس كمثله شيء وهو كل شيء . والظاهرة لها أبواب عديدة ولكن لا يمكن دخولها من باب واحد فقط .

ان من أكثر الأمراض إستعصاء أمام الطبيب النفسى الإدمان . فنتائج العلاج الطبى للمدمن سيئة للغاية علماً بأن نسبة الذين يقبلون على العلاج من بين المدمنين قليلة . رغم أن الذين يقبلون بإرادتهم ، وهم أقل ، أفضل من الذين يقبلون قسراً أو بسبب ضغوط عائلية واجتماعية . وحتى هذه القلة من الذين يحضرون طالبين العلاج أغلبهم يرتد .

إذا أضفنا أن طرق العلاج الطبية قلما تنهج المنهج الجذرى الذى يسعى إلى معالجة جذور المشكلة ، وكثير منها لا يعدو أن يكون إستبدال عقار ممنوع يدمنه المريض إلى عقار مشروع يدمنه . بل أنه فى بعض الحالات

يكتفى العلاج الطبى بتوفير العقار الممنوع بشكل مشروع يضمن أن لا يضطر المدمن للجوء إلى الأوكار حيث العدوى والتلوث ولا إلى الجريمة كوسيلة للانفاق على العقار . مثلا فإن عقار الميثادون إنما هو أحد المواد الأفيونية المصنعة لا يختلف إلا فى القليل من الخواص عن الأفيون (لا يؤدى إلى نفس النشوة السريعة ويبقى فى الجسم مدة أطول وأعراض الانسحاب منه أقل حدة) ويستخدم الميثادون (فى الخارج وليس فى مصر) بصفة شبه دائمة لتحويل المدمن من الأفيون إلى الميثادون . أو قد يستخدم عقاراً آخر مثـــل العقاقير النفسية المشروعة مثل المهدئات ومضادات الاكتئاب ومضادات الذهان . فهو ليس علاجاً بالمعنى الجذرى ولكنه إستبدال داء ممنوع بداء مشروع . ويبقى الإدمان .

وهناك بالطبع طرق علاجية أخرى لا ترضى بالاستبدال الدائم وإن كانت تعتمد على الاستبدال المؤقت . هنا تستخدم العقاقير لمعاونة المريض على العبور بفترة الانسحاب والتى تكون مؤلمة (خاصة فى حالات إدمان الأفونات) أو خطيرة (فى حالات إدمان المهدئات وخاصة الخمر) أو طفيفة (فى حالات إدمان المنبهات وموسعات الوعى مثل الكوكايين والحشيش) . كما تستخدم العقاقير لعلاج المرض النفسى الذى يكمن وراء الإدمان (وهو ما يحدث فى حوالى ربع الحالات) .

والعلاج الطبى الذى يعتمد على العلاج بالكيمياء وحده يفشل غالباً . ومن العوامل المساعدة دخول المستشفى حيث يمنع المريض من التعرض للاغراء على اللجوء إلى العقار الممنوع . وكذا يبعد مؤقتاً عن البيئة التى يرجع إليها صراعاته وإحباطاته حتى يقوى عوده ويعود إليها قادراً على مجابهتها . ولكن التوقف عند هذا أيضاً يفشل . فالمستشفى ، وخاصة

إذا كانت مفتوحة ، سرعان ما تتحول لوكر للتعاطى والاتجار . وفى بعض الأحيان يدخل المريض مدمناً لعقار ويخرج وقد اكتسب خبرة فى بقية عقاقير الإدمان . ومروجوا المخدرات يعرفون ذلك جيداً ولذا يقيمون مراكز توزيعهم داخل أو بجوار مراكز العلاج . ويحضر المدمن للعلاج ويخرج من العيادة أو المستشفى إلى الغرفة المجاورة . فإذا ضبط يستطيع أن يدعو أنه إنما جاء للعلاج .

ولذلك فالعلاج الطبي يستعين بالعلاج البيئى سواء داخل المستشفى أو خارجها . وهنا يبرز دور الفريق العلاجى الذى يشمل الأخصائى الاجتماعى والأخصائى النفسى والتمريض وأخصائى العلاج النشاطى (بالرياضة والرقص والحركة والعمل والفن من رسم ونحت وموسيقى ومسرح وغير ذلك) . وهذا العلاج البيئى هو الذى يستغرق الوقت والجهد (فالعلاج الطبي قلما يحتاج أكثر من أسبوع بينما العلاج البيئى يستغرق عدة شهور ويستكمل خارج المستشفى لمدة عامين أو أكثر) .

أن المدمن لا يدمن بسبب التعلق الجسدى بالعقار فقط . فالمنشطات لا تسبب فى تعلق جسدى والاقلاع عنها لا يرتبط ألا نادراً بأعراض جسدية تحتاج إلى رعاية طبية . ومع ذلك فإدمانها (بمعنى التعلق النفسى) شديد للغاية والذى يجربها لا ينسى النشوة والنشاط اللتين تصاحبانها . ويزداد التعلق لما يتلو هذا الحال الإيجابى من رد فعل عكسى على هيئة إكتئاب وإرهاق وخمول بدرجة شديدة تجعل الفرد يهرع لاهثاً وراء جرعة أخرى وجرعة أكبر . أنه يريد ما يريده فوراً ويريد المزيد منه . وكلما أخذ وتعود كلما احتاج الزيادة فى الجرعة حتى ينتهى به الأمر لأن يرتبك جهازه

ويضطرب تكيفه النفسى والاجتماعى . وهو الأمر الذى قد يدفعه أو يدفع ذويه للبحث عن العلاج . وكذلك الأمر مع موسعات الوعى فيما يتعلق بالإدمان الجسدى . فلا يوجد فى هذه الحالات إدمان جسدى . والاقلاع عن هذه العقاقير لا يصاحب بأعراض إنسحابية تذكر . وتختلف أن إدمانها نفسياً أقل من حالة المنشطات . إذ أن رد الفعل التالى لحالة النشوة لا يصل إلى درجة الاكتئاب الشديد الذى يحدث فى حالة المنشطات . كما أن طلب العقار لا يكون ملحاً وقاما يكون طلباً للمزيد إذ أن المفعول المراد يمكن الحصول عليه بنفس الجرعة أو أحياناً أقل (وهو ما يعرف بالتحمل العكسى أو الاطاقة العكسية Reverse tolerance). .

فى هذه الحالات ، حيث لا يوجد إدمان بالمعنى الجسدى ، نستطيع أن نقول أن المرض هو فى الإدمان بمعنى التعلق أو الاعتماد النفسى بمصدر خارجى للإسعاد وما يعكسه ذلك (ويؤدى إليه أيضاً) من إنسحاب من عالم الواقع إلى عالم الخيال . أنه بهذا المعنى أقرب إلى المرض النفسى البحت منه إلى المرض الطبى حيث تغلب العوامل العضوية الجسدية . وهو بهذا المفهوم يعالج كحالة نفسية تتسم بالاعتمادية والانسحاب . وهى سمات مشتركة مع كثير من الأمراض النفسية بدرجات متفاوتة . فهى واضحة وشديدة فى الحالات الذهانية مثل الفصام والاكتئاب حيث يكون الانسحاب شبه كامل وكذلك الاعتمادية . وأقل وضوحاً فى الحالات العصابية واضطرابات الشخصية .

أن علاج هذه الحالات لا يعتمد إذاً على أى عقاقير خاصة بعلاج الإدمان ولكن على مراحل علاجية (شاملة العقاقير) تتعامل مع المرض

النفسي وتمالج الاعتمادية والانسحاب . وهي المداخل التي ألمحنا إليها ضمن العلاج البيئي ويضاف إليها العلاج النفسي المتعمق الذي يسعى إلى إعادة تركيب الشخصية بعد تحليلها ، أكثر مما يكتفي بالطمأنينة أو الإيحاء أو الإرشاد أو التوجيه . إذ يتطلب جهداً من المعالج في معايشة المريض دقائق صراعاته النفسية وإحباطاته وآماله . فيصير صديقاً متعاطفاً ومحللا موضوعياً وممثل سلطة معا . إذ هو صديق وأب (أو أم) في آن واحد . ويعمق العلاقة الطبيبية المريضية بما يتيح للمريض أن يجد المناخ الملائم للتعبير والكشف عن أغوار نفسه . ولذا فهو علاج يستمر بلا توقف حتى وإن لم يأخذ الشكل الرسمي والمهني . أي أنه علاج يستمر من خلال ما يكتسبه المريض من مهارات في العلاقة الثنائية بينه وبين المعالج إلى علاقات ثنائية وجماعية أخرى وخاصة العلاقة الأسرية والتي أهمها الزوج المتفاعل والملتزم .

ورغم أنه توجد نتائج متفائلة عند الأطباء والمعالجين النفسيين فإن هذه المحاولات العلاجية القائمة على تعدد المداخل لا غنى عنها للاستبصار بديناميات الشفاء عند المدمنين . فالمدمنون كثيراً ما يشفون خارج العيادة النفسية . فالكثير منهم يشفى وحده مع تقدم السن والنضج . والبعض يشفى نتيجة عوامل إجتماعية ونفسية محيطة تعاونه على العبور من حالة الإدمان . والبعض يشفى بمعنى أنه يستمر مدمنا ولكنه لا يتسبب في مشاكل تذكر سواء له أو للمحيطين به . بل أنه يستخدم العقار الذي يدمنه كعلاج يعاونه على تحمل ضغوط الحياة مما يسمح له بالاستمرار في عمله منتجا ونشيطا وفي علاقاته الاجتماعية مرحا وعطوفا . (هؤلاء

يشكلون البعض ممن يمكن إعتبارهم متوسطى السواء والبعض ممن يمكن إعتبارهم مرضى يعالجون أنفسهم بأنفسهم بواسطة عقار الإدمان أو مرضى بالإدمان ولكن يتمكنون من التكيف النفسى والاجتماعى بالتوازى وكأنه إنشقاق فى الشخصية إلى اثنين واحد سوى وآخر مريض أما الباقى وهم يشكلون حوالى الثلث منهم ما يمكن وصفهم بأنهم مضطربو الشخصية وذوو نزعات مضادة للمجتمع وإجرامية وهؤلاء يتعاطون العقاقير كجزء من نمط حياة معارض للمجتمع ومرتبط بالجريمة كما أنهم يشتركون فى حث غيرهم وإغرائهم أو الضغط عليهم بهدف إستغلالهم فى الاتجار) ولعل هذا يفسر قلة إقبال المدمنين على العيادة النفسية علاوة على أن موقف المجتمع عامة والقانون خاصة موقف إدانة وتجريم يجعل المدمن يخجل من ذاته ولا يبوح به حتى للطبيب ولا لأسرته ألا لأصدقائه فى بعض الأحيان .

ان هذه الاستنتاجات المبنية على الخبرة فى العلاج الطبى والنفسى وإن كانت لا تعكس نتائجها إيجابية للعلاج المذكور مفيدة فى إلقاء الضوء على ديناميات العلاج بما يجعلنا نوجه طاقاتنا فى الاتجاه السليم . كما أنها أكثر فائدة فى إلقاء الضوء على سبل الوقاية وإبداء الرأى فى مجالات أخرى خارج النهج الطبى وأهمها التربية والتعليم والتوعية والإعلام والتشريع والقانون والأمن والوعظ والإرشاد الدينى .

المدمن غالباً إنسان مقهور . يهرب من إحساسه بالقهر بأن يضفى على نفسه إحساسا ولو وقتيا ووهميا بالقوة والنشوة . كما يهرب من ذات

الواقع الذى يشعر أنه ضحية لقهره . ويستبدله بعالم من الخيال الثرى الذى يشكله حسب هواه .

ولذلك فلابد أن يخلو المدخل العلاجى من موقف القهر . ألا أنه فى ذات الوقت نجد جانباً آخر فى شخصية المدمن وهو الاعتمادية . فهو وأن شكا من القهر ألا أنه لا يعفى تماماً من مسئولية كونه مقهوراً . فهو يتمسك بصفات فى الشخصية تحث الغير على قهره . وكثيراً ما يختار العلاقات والمواقف التى تمكنه من أخذ دور الضحية مثلما يختار أن يشكو من هذا الدور . أى أنه اختار أن يكون ضحية شريطة أن يتحمل مسئولية إختياره وعليه فهو يشكو من القهر ، وهذا الموقف الشاكى العاجز أيضاً اختيار .

العلاقة مع المدمن إذا تتطلب من المعالج أن يعرف إلى أى مدى وكيف يمارس السلطة الأبوية ويوائمه إحتياج المريض القهر . ولكن الشرط ليكون هذا القهر علاجياً وليس قهراً يلبى إحتياج المعالج لممارسة السلطة هى أن يتمكن بل يرغب المعالج فى التخلص من هذا الدور وتسليم المريض زمام الأمور ليتحمل مسئولية إختياراته وحياته . وهذا يتم فيما لو توفر للمعالج مرونة فى الدور تسمح له بأن يكون متعاطفاً من موقع ندى ومتحكماً من موقع سلطوى فى آن واحد .

وبما أن الميل إلى التسلط سمة منتشرة بين أصحاب المهن المختلفة سواء كانوا معالجين نفسيين أو أطباء ناهيك عن ممثلى السلطة الاجتماعية ذاتها من أجهزة أمن وقانون ، فإن ما يحتاج إلى التبصير به

وتنميته هو دور التعاطف الندى . القسوة منتشرة وما يجب تأكيده الرحمة والمودة .

ومن هنا يتبين لنا سر نجاح الجماعات المكونة من مدمنين تائبين ولديهم رغبة (أحياناً سلطوية) لمعاونة زملائهم من المدمنين الذين لم يتوبوا ، نشأت هذه الجماعات فيه بين هؤلاء أول ما نشأت بتكوين جماعة « مدمنى الكحل بلا إسم Alonolics Anonymous . وقامت على أساس أن خير من يفهم المدمن ويستطيع بالتالى أن يعاونه هو المدمن الذى تاب . فهو يستطيع أن يتعاطف معه ولكنه أيضاً يستطيع أن يعرف حيله وميوله للارتداد وحاجته للمساندة السلطوية . أنه يقدم له التعاطف المصحوب بالالتزام والالزام . فهو يسأل عن زميله ويذكره بأنه موجود بجواره ، وبشكل مستتر يذكره أنه عليه رقيب . ونشأت بعدها جماعات لعلاج مدمنى الأفيونيات وأشهرها جماعة سينانون Synanon ثم فينكس هاوس Phoenix HOuse وغيرهم . وهؤلاء تطوروا بحيث أقاموا شبه مجتمعات خاصة بهم لها رأسمالها التعاونى لتوفير العمل للمدمنين سواء فى علاج زملائهم أو فى أنشطة إقتصادية مختلفة . كما أنهم سرعان ما اكتشفوا أن فى علاجهم للإدمان كاضطراب شخصية يمكنهم أن يقبلوا مضطربى الشخصية والمرضى النفسيين من غير حالات الإدمان . بل أنهم فتحوا أبوابهم للاسوياء . وفى هذا تحول فى إتجاه التعامل مع الإدمان كجزء من كل وليس كرض فى حد ذاته يتطلب علاجاً خاصاً وفى مكان معزول أو مغلق . أن مثل هذا المدخل أفضل بمراحل من المراكز المتخصصة لمعالجة المدمنين . فالمدمن مهما تطور مفهوم المجتمع لتقبله دون إدانة

أو تجريم (ونحن ما زلنا بعيدين عن هذا) لا يسعده أن تلصق به لافتة « مدمن » ولذلك فإنه حتى على إفتراض أن تطور موقف مجتمعنا في إتجاه الرحمة وبعيداً عن الادانة والتجريم والعقاب الشديد وشهوة الدم ، فإنه حتى في هذه الحالة فسوف يفضل المدمن أن يذهب إلى مكان لا يتميز بأنه لعلاج المدمنين . فهو يفضل أن يكون واحداً من الناس وليس من فئة خاصة . وهو محق في هذا . فالهدف من العلاج أن يصير واحداً من الناس. ويمكن إختصار الطريق بأن يتحقق هذا الهدف من خلال الوسيلة ذاتها . فيكون اطار العلاج إطاراً عاماً لعلاج النفس البشرية أو لتنميتها كنفس سوية (وليست كحالة إدمان أو مرض نفسى) .

ان دور الطب إذا لا يمكن إنجاحه من خلال بقاء الأطباء النفسيين في عزلة متخصصة عن بقية التخصصات أو عن المجتمع لابد أن يدلى الطبيب بدلوه في مسائل تخرج عن تخصصه وأن يتحاور مع غيره في مجالات أخرى علاوة على تحاوره المباشر مع الجمهور من خلال التوعية الصحية والنفسية . ولابد أن يكون الطبيب في حواره قادراً على الاستماع لكافة وجهات النظر وعلى التعاطف مع كافة المواقف الأخرى وأهمها مواقف المدمنين أنفسهم . ولا شك أن هذا النهج قد يعرض الطبيب لسوء الفهم والتفسير والهجوم والتشهير . ولكن هذه هي ضريبة العمل العام . وما عدا ذلك فهو ليس ألا تكديساً للتخصص بما يزيد من عزلة الطب عن المجتمع والمريض كذلك .

ومن هنا فإن إدراك الطب النفسى لتصوره هو الذى يحمله يريده خارج اطاره . فيدلى بدلوه فى مسائل قد تبدو أنها من إختصاص الدين أو القانون أو السياسة وغير ذلك .

إلا أن هذا التخصص مفتعل وليس طبيعياً . الطبيعى أن يتعامل الانسان مع الظواهر ككل وبشكل شامل وليس من منطلق تحليلى وتفصيصى . التحليل هو افراز الاتجاه العلمى المتخصص . وهو ضرورة مرحلية ولكنه ليس نهاية المطاف فى التعامل مع الظواهر ، فى البداية يكون الإنسان (فى طفولته) بريئاً يتعامل مع الكليات . ثم يتعلم التخصص وكيفية التعامل مع الجزئيات وبعد هذا ينضج ويعود مرة أخرى للتعامل مع الكليات . هذا هو نهج التوحيد الذى يشكل أهم أسس الفكر الإسلامى. فلا إنفصام بين دنيا وآخرة ، أو جسد وروح ، أو سلطان وكاهن ، أو ملك وفيلسوف — التوحيد هو نهاية المطاف حتى ولو كان التعدد بداية مرحلية له .

الدين والعلاج النفسى : وضع سيجموند فرويد أسس التحليل النفسى فى بداية القرن حين كان الفكر العلمى القائم على المادية البحتة يسود . ولذلك لم يكن مكان لدور الدين . إلا أن زميله كارل يونج الذى لم يحظ بذات القدر من الشهرة والنجاح ساعتها كان قد انشق عن التيار السائد للتحليل النفسى وأخذ يبحث عن طريق مطور له . فاهتم بالجانب الروحى

للانسان ودور الدين فى حياته النفسية (وعضده على مستوى علم التاريخ آرنولد توينبى الذين بين أهمية دور الدين فى حركة التاريخ . كما عضده على مستوى التعبير الأدبى الشاعر ت . س . اليوت الذى بلور رحلاته الروحية فى أشعاره) .

ولم يعرف القدر الحقيقى لإسهامات يونج الا بعد رحيله . إذ تطور علم النفس من موقف الصراع بين مدرستى التحليل النفسى والسلوكيين إلى جماع يجمع بين خواص الاثنين على هيئة ما عرف بالقوة الثالثة فى علم النفس أو التيار الوجودى الإنسانى . ثم تطور هذا مرة أخرى ليفرز علم نفس ما عبر الشخصية TRANSPERSONEL وكذا العلاج النفسى القائم على أسسه .

فى هذا الاتجاه يسعى العلاج إلى تحقيق ما سبقه فية كافة الأديان . وهو العبور بالشخص من حدوده ذاته إلى حالة الذوبان فى الموضوع أو الفناء فى ذات الله . فالأمراض النفسية ليست أمراضاً فى الشخصية ولكنها أمراض بالشخصية . أى أننا لا نملك شخصية فيها صراع ولكن لاننا نملك شخصية فإننا فى صراع مع ما عداها . فالعلاج لا يتم داخل الشخصية ولكن عبرها .

وإذا كان العبور خارج جدود الشخصية قد يبدأ بالعلاقة بين الشخص وموضوعات حبه الأولى ثم ما يتلوها فإن التطور فى إتجاه إتساع دائرة مواضيع الحب يزداد . فالبداية فى حب الأم والطفل لابد لها من تطور لتشمل الأب والأشقاء والأقارب والأصدقاء ثم المدرسة والجامعة

ثم رفاق العمل والرؤساء والمرءوسين ثم الجماعات الأكبر على مستوى الوطن والأمة والإنسانية ثم الكائنات الحية ثم الكائنات والكون برمته أو كل شيء مما يقود إلى حب الذات العليا أو الله .

المدمن كما أشرنا أصناف ومستويات . منهم من يهرب خوفاً أو يدمر نفسه تدميراً كبديل لتدمير الغير أو من ينسحب إنسحاباً مؤقتاً للبحث فى أغوار نفسه . والأمر قد يختلف على حسب الشخص وتكوينه النفسى وكذلك على حسب البيئة المباشرة التى يتم فيها التعاطى علاوة على نوع العقار .

فهناك الذى يلجأ للخمر لما توفره من اذابة للضمير بما يحل للغرائز أن تنطلق دون قيود . وقد يكون إنطلاقاً بريئاً يسمح للشخص أن يتغلب على توتره وتعلقه الاجتماعى بما يسمح له أن يمرح ويثرثر فى حفلة كوكتيل أو إنطلاقاً خبيثاً يسمح له أن يرتكب جرائم العنف بدون تردد أو تأنيب ضمير . ولكن هناك شخص قد يستخدمها التغييب شبه الكامل لوعيه ليهرب من مواجهة مشاكل الواقع فينام تماماً .

وكذلك فى غير الخمر . فكل شخص له مفعول يريده وقد يجرب عقاراً ثم آخر بحثاً عنه . وقد يجده فى أكثر من عقار رغم إختلافات تخفيف مفعولها . فالإنسان القلق أو المكتئب قد يجد فى الخمر ما يريده من لقلقه أو الوعى باكتئابه ولكنه قد يجد نفس المفعول فى عقار آخر رغم إختلاف التأثير الكيميائى . فالمفعول هنا هو مفعول يحتاجه المتعاطى أكثر منه من مفعول يؤدى إليه العقار . ولذلك نجد الناس تختلف فى وصف تأثير عقار ما . بل نجد نفس الشخص يختلف فى تأثره بعقار ما مع اختلاف

حالته المزاجية . مرة قد يمرح من تأثير عقار ما ثم مرة أخرى نجده يبكى أو يهيج أو ينام .

أما الحشيش وما شابهه فلعله أكثر مرونة فى تقديم الحالة المزاجية التى يريدها المتعاطى . فالذى لا يريد أثراً قد يصف عدم التأثير . والذى يريد أن يعمق إحساسه بالحزن أو المرح قد يجد هذا أو ذاك .

فى كل الأحوال فهناك عنصر مشترك فى هذه العقاقير . وهو أن المتعاطى يريد الوصول إلى حالة وعى ووجدان يخشى أو يعجز عن الوصول إليها بشكل تلقائى . ولأنها حالة يطلبها فهى مصدر لذة له حتى لو كان فيها حزن أو عنف .

الخبرة الدينية (أو الصوفية أو القمية) هى خبرة إنتقال من حالة وعى محدود إلى حالة وعى متسع . أى من وعى الشخص بحدود ذاته إلى وعيه بتجاوز تلك الحدود . وهى خبرة تلقائية (حتى ولو كان الطريق إليها يتطلب التعدد والمثابرة سواء فى العبادة أو العمل الصالح) وتأتى نتيجة الهداية من عند الله أى بشكل تلقائى وليس متعمداً أو مصطنعاً . فهى حالة هناء ولكن بلا كيمياء .

المدمن يسعى إلى الخروج من حالة وعيه المحدود . والخبرة الدينية توفر إمكانية الخروج (دون هروب) من هذه الحالة . ومن هناك كان الإيمان هو البديل الجذرى للادمان . وما عدا ذلك فهى بدائل مؤقتة وزائلة مثلها مثل الكيمياء .

وما يبدو سهلا إنما هو أيضاً ممتنع . ما أيسر القول أن الإيمان علاج الإدمان . وأن الهناء الحقيقى هو ما فى غنى عن الكيمياء . أنه السهل الممتنع .

وهنا تأتى أهمية المهارات النفسية التى يملكها المعالج النفسى . ومثلما العقاقير أنواع والمدمنون أنواع والمعالجون النفسيون أيضاً أنواع .

المعالج النفسى الذى يسعى إلى إصطحاب مريض عبر رحلة المرض أو العناء فى إتجاه الهناء وبدون كيمياء لابد له من صفات شخصية عدا مهاراته . فالمعالج النفسى أداته الرئيسية هى شخصه أكثر مما هى الدور الذى يؤديه . أنه زول قبل أن يكون دوراً والصفات التى يحتاجها هى الإيمان والهناء بلا كيمياء فالقدوة خير من التلقين . وهو بفضل قدرته على المشاركة وتجاوزاته يقدم للمريض نمطاً على علاقة تجاوز الذات يسير على هداه .

ومن هنا فإن دوره لا يتحدد بالوعظ والإرشاد ناهيك عن التهديدات والوعيد . فالمراد ليس أن ينمو المريض خوفاً أو طمعاً ولكن حباً . والمطلوب من المريض لا يقتصر على العبادة والعمل الصالح وان كان لا غنى عنها ، ولكنه تجاوز ذلك بأن يتعلم كيف يسلم وجهه لخالقه ويجعل إرادته من إرادته فيصير ربانياً فيقول للشيء كن فيكون .

هذا عن دور الدين فى العلاج . ولكن الوقاية وخاصة فى حالة مشكلة الإدمان أهم بمراحل من العلاج . فمشكلة الإدمان مشكلة إجتماعية يقدر

ما هى شخصية . والمجتمع يهمه أن يحد من انتشار الظاهرة أكثر مما يهمه أن ينقذ أعداداً من الذين أصيبوا هى مهما كبرت فمحدودة .

ويستطيع الطب النفسى أن يتعاون مع التوعية الدينية بأن يبين بعض الأسس التى بواسطتها يمكن أن تكون التوعية ذات تأثير . مثلا كأن يشير إلى حدود التهديد والوعيد أو الترغيب والوعود وأهمية القدوة والممارسة . إذ لا كهنوت فى الإسلام . ورجل الدين هو أيضاً رجل الدولة . والعابد المؤمن هو أيضاً الفاعل المنتج .

الجزء الثاني

في الحرية الاجتماعية

١ - الكذب المتدين والتدين الكاذب

لقد نشأ علم النفس الحديث فى الغرب . ونشأ من بين ما نشأ من مدارسه ما يمكن وصفه بعلم نفس الأعماق . وهو ذلك الإتجاه فى علم النفس الذى يبحث فى أعماق النفس البشرية بالاستبطان أو المعايشة لفرد أو أفراد محدودين بشكل مطول ومكثف ومتعمق . وتوج هذا التيار بصعود نجم العالم الطبيب سيجموند فرويد ومدرسة التحليل النفسى الكلاسيكى التى أسسها فى مطلع هذا القرن . وفى محاولة علم النفس عامة وهذه المدرسة خاصة ازاحة التهمة الموجهة إليها بأنها لا تخضع للمناهج التجريبية والقائمة على القياس المحسوس فإنها سعت فى إتجاه الملكية أكثر من الملك بأن استخدمت المنطق العلمى فى التحليل لتفسير ما قد سبق معرفته بالحدس والخبرة المباشرة . ومنذ البداية وفرويد يعترف بأن الشعراء والحكماء عرفوا بالحدس عن النفس البشرية ما إكتشفه هو بالملاحظة والتحليل العامى . بل جاء بعده الفيلسوف الإنجليزى الأصل (والذى كان من قبل قسيساً استهوته الديانات الشرقية فاعتنق منها الـ « زن بوذية ») وهو آلن واتس ، من أن العلاج النفسى الغربى بعد بحث طويل وجد نفسه يلتقى فى أهدافه مع أهداف التصوف الذى هو العنصر المشترك كخبرة دينية فى الأديان .

فى كتابه « العلاج النفسى : الشرق والغرب » .

أستاذ طب نفس الأطفال فى جامعة لويوفيل بكنتكى بالولايات المتحدة . وهو محلل نفسى من المدرسة الفرويدية الكلاسيكية .

وتبعه المحلل النفسي الإيراني الأصل والأمريكي الجنسية محمد شافعي بأن بين أن الدرجات التي يصعدها المتصوف في رحلته، وهي سبع، إنما تفوق ما يهدف إليه التحليل النفسي الذي لم يكن يتعدى الدرجة الثالثة في مراحل رحلة التصوف.

ولأن فرويد كان يسعى نحو العلم ليكون ملكياً أكثر من الملك فإن منهجه كان تحليلياً مفككاً يرجع الظواهر والنتائج إلى أسباب سابقة وبالتالي لا يجد مكاناً للدين في نظريته. فالدين عنده ليس ألا تعبيراً عن حاجات الإنسان الطفلية مسقطة على كيانات بديلة ورمزية. وأن الإنسان الذي لا يستطيع أن يتغلب على هذه الاحتياجات ويشبعها لن يلجأ إلى البدائل وبالتالي لن يحتاج إلى الدين.

ورغم أن هذه النغمة المعارضة للدين غلبت على فكر التحليل النفسي ألا أنها بدأت من قبله من جانب المد العلمي بشكل عام. فالعلم في الحضارة الغربية لا يترعرع ألا بفضل إنفصال الكنيسة (أي الدين) عن الدولة، أو بالأصح بتحرير الدولة ومن تستعين بهم من علماء ومفكرين من الخضوع للوصاية الفكرية أو العقائدية للكنيسة. وانحدرت الكنيسة إلى المرتبة الثانية وصارت مجرد أداة للدولة. وما دام العلم، خاصه المتصل بالوجود المادي، قد ترعرع بفضل تمرده على الكنيسة فلابد وأن تسير على نهجه بقية العلوم الحديثة والمتصلة بالوجود الإنساني مثل علم النفس.

إلا أن هذا العداء الخفي بين الدين وعلم النفس لم يوجد منذ ميلاد التحليل النفسي. فقد انشق منذ وقت مبكر أحد أهم أعمدة التحليل النفسي

عند نشأته ، كارل جوستاف يونج (وهو عالم طبيب سويسرى مسيحى بين مجموعة مكونة أساساً من علماء يهود غالباً من النمسا وألمانيا) .
وكان أهم مبحث لانشقاقه عن فرويد هو موقفه من الدين فهو يعترف لفرويد وزميله آدلر (الذى أنشق هو أيضاً عن فرويد) بأن الدوافع الغريزية (الجنسية فى حالة فرويد والعدوانية فى حالة آدلر) يمكن بواسطة التحليل المفتت أن تكفى لتفسير مشاكل الشباب والراشدين قبل فترة منتصف العمر . فهى أمور حق كافية لشغل صاحبها طيلة هذه المرحلة من عمره . فالفرد يريد أن يؤكد ذاته ويبنى هويته ويرسخها ويضمن إستمراره البيولوجى ، ألا أن التطوير الطبيعى فى النفس البشرية يقتضى أن يتجاوز الإنسان هذه المرحلة (وهذا ما أكده أيضاً إريك إريكسون بشكل آخر وهو من المدرسة الفرويدية) ويبدأ فى البحث عن مصب لعطائه . فقد أطعم من جوع وأمن من خوف وحان له أن يعبد رب هذا البيت أن التحليل المنطقى بإرجاع السلوك إلى الدوافع لا يكفى . وهنا يتطلب الأمر من وجهة نظر يونج أن ننتقل من مرحلة التحليل المفتت إلى مرحلة التكامل والتفرد .
فالفرد يتجه نحو التفرد بأن يكون فرداً متكاملا متوازناً تتحد فيه الاضداد وتعمل أوجه الشخصية المختلفة — السالب والموجب ، والمظلم والمضىء ، والمذكر والمؤنث ، والقوى والضعيف ، والخير والشرير — فى تناغم وتكامل بدلا من التصارع أو الإخفاء أو الإنكار أو الكبت لجانب على حساب الجانب الآخر حيث تكون النتيجة أن يسقط المرء جانبه السىء على عدو خارجى يصب عليه غضبه ويعيش معه صراعه الداخلى وتحقيق التفرد بالتكامل .

أن هذا الطلب الملح الذى كان يعرض على يونج من هؤلاء الباحثين حمل يونج يبحث عما بعد الدوافع التى تدفع الإنسان وهو أن هناك أهدافاً يسعى الإنسان نحوها . وأن هذه الأهداف هى القيم الروحية التى تتمثل فى أشكال رمزية أو أسطورية تتشابه فى الجوهر عبر كل الأديان وتنجح فى أن تلهم الأفراد والجموع بما يجعلهم يتفانون فى خدمة الهدف الاسمى . وهكذا رأى المؤرخ الإنجليزى آرنولد توينبى أن القيم الروحية العليا التى أتت بها الأديان هى الأساس الذى أعطى الدفعة للحركات الإجتماعية التوسعية التى شكلت الحضارات . أن الحضارات . أن الحضارات تقوم على ذلك الإيمان المطلق والتسليم الكامل من قبل الجموع لرمز يعبر عما يجد صدى فى أنفسهم من إيمان بأن هناك هدفاً أسمى من الأهداف الدنيوية الدنيا التى تهدف إلى اشباع حاجات الفرد الذاتية والغريزية .

ورغم أن يونج لم يأخذ حقه ومكانته العلمية فى حياته ألا أن التقدير لمساهماته يزداد يوماً بعد يوم . وتعتبر مساهماته من أو أوائل المساهمات فى تشكيل ذلك التيار الثالث فى علم النفس والعلاج النفسى ، وهو التيار الإنسانى الوجودى والذى ساهم فيه آخرون أمثل بينسفا نجر وياسيرز (بالتوازى مع يونج) . إلى فيكتور فرانكل وفرويد بيرلز - وآبراهام مازلو وكارل روجرز وغيرهم . ثم نشأ عن هذا التيار الثالث وليد ما زال فى بداية تكوينه وهو علم نفس ما عبر الشخصية . وهذا التيار يسير خطوة فى إتجاه الدين بأن يقول أن المرض ليس موجوداً فى الشخصية ولكن

المرض فى مجرد وجود الشخصية . إذ أن وجود الشخصية يعنى أنه وجود ينفى ما عداه أى أنه وجود بطبيعته متصارع مع نقيضه وهو العدم . وهذا يعنى الصراع والتناقض الذى هو أساس المعاناة والمرض . وبالتالى فإن العلاج هو بفناء الشخصية والانتقال بالوعى من وعى بالذات المحددة بالشخصية إلى وعى بالذات المتسمة التى هى الموضوع . أو وعى ، ولو لحظى ، بوحدة الوجود سرعان ما ينتقل بالضرورة ، لكوننا موجودين فى هذه الدنيا منفصلين بأجسادنا عن خالقنا ، إلى وحدة شهود .

ألا أن تونج فى بحثه عن الارتباط بين الدين وعلم النفس كما كان يدرسه لم يتعد دراسة الديانة المسيحية وكذلك بعض الديانات الشرقية . وأشار إلى الاسلام فى فقرات محدودة . ولكن التيار المشار إليه اكتشف ما يحمله التراث الصوفى الاسلامى (وخاصة من خلال كتابات الكاتب الصوفى الهندى المولد والأفغانى الأصل والبريطانى الجنسية السيد إدريس شاه) اكتشف هذا التيار أهمية دراسة التصوف الاسلامى وما يحمله من اشارات عميقة لدراسة النفس البشرية ومراحل تطورها من مرحلة تكوين الذات إلى تجاوزها بالسمو نحو الذوبان فى الذات العليا . هذا فى ذات الوقت الذى نشأت داخل التحليل النفسى تيارات تسعى إلى تعديل نظرة فرويد والربط بين إكتشافات وأهداف التحليل النفسى وحكم أهداف

آخرها كتاب : التحرر من النفس : التصوف والتأمل والعلاج النفسى . مطبعة علوم الانسان ، نيويورك ، ١٩٨٥ .

المتصوفين وبالتجديد فى دراسات الدكتور محمد شافعى الذى أشرنا إليه .

وهنا نطرح السؤال . ما هو الدور الذى يمكن أن يقوم به علماء النفس فى العالم العربى والإسلامى لبناء المعابر بين الأصالة والتحديث ؟ كيف يمكنهم إعادة إكتشاف القديم ومضاهاته بالمكتشفات الحديثة وإقامة جسور من الحوار تجعل حدس الحكمة الأصيلة يتسلح بالمنطق والعلم والتجريب ؟ كيف يمكن لنا أن نستفيد من التكنولوجيا العلمية النفسية الغربية لنعيد إكتشاف علم النفس الإسلامى ؟

أن الإجابة على هذا السؤال لا يمكن أن تأتى من علماء النفس المتخصصين وحدهم أو من علماء الفقه وأصول الدين والتراث الإسلامى وحدهم . ولكن الأغلب أنه قد يأتى بواسطة حوار وتعاون يجرى لا فقط بينهما ولكن بينهما وبين الآخرين من علماء نفس ورجال دين مسلمين وغيرهم سواء محليين أو من الخارج . فالحوار مع الزميل فى العقيدة كثيراً ما يتوقف عند بعض المسلمات التى تشكل أساس إشتراكهم فى العقيدة . ولكن الحوار مع الآخر يتطلب التسلح بالحجة والمنطق وعدم اللجوء إلى الاستشهاد بالحقائق المطلقة والغيبيات والتى يتحتم فرضها من قبل طرف على الطرف الآخر وإن كان يمكن التصور أن محاولة الوصول إلى هذه الحقيقة المطلقة هى نقطة النهاية التى يسعى إليها الحوار الناجح . ما دام المحك بين طرفين لا يلتقيان فى العقيدة هو المنطق والجدل الحسن فلا مفر من اللجوء إلى أرقى مستويات المنطق والمبنى على الحقائق العلمية . وهذه أفضل طريقة أولا لتحويل طاقاتنا من التناطح الداخلى سعياً لحل إختلافاتنا

فى المذاهب والتفسيرات وثانياً فى توحيد وتقوية حجتنا ازاء التحدى الذى يأتينا من الخارج .

ولذلك يتحتم على علماء النفس فى العالم العربى الإسلامى قبل غيرهم أولا أن يتفتحوا على العلم الغربى ويغترفوا منه دون أن يفقدوا الاتصال بالجذور والاصالة والتراث وعلاوة على ذلك عليهم ، لكى تكون رؤيتهم جزءاً من رؤية كلية للصحوة الحضارية الإسلامية المطلوبة كرد على تحدى السيطرة الغربية ، أن يساهموا مساهمة إيجابية فى صنع هذه الرؤية . فهم مطالبون بالخروج من حدود تخصصاتهم الضيقة والسعى إلى فهم وحل المشاكل الصراعيه التى تنشأ على المستويات التى تصب فى تكوين نفسية الفرد : أى المستويات الحضارية المختلفة شاملة الدين والسياسة على الأخص .

أن المساحة المشتركة بين علم النفس والدين قد طرحت للاستكشاف والبحث . وكذلك المساحة المشتركة بين علم النفس والسياسة (هناك فى الولايات المتحدة جمعية حديثة النشأة مطردة النمو تحمل هذا الإسم وهى الجمعية الدولية لعلم النفس السياسى) .

وبعد هذه المقدمة ومن هذا المنطلق ، أى ضرورة أن يتصدى علماء النفس للقضايا الحساسة وبالتحديد قضايا الدين والسياسة سوف ننتقل إلى مضمون عنوان المقال وهو « الكذب المتدين والتدين الكاذب » وسوف نبدأ من المنطلق التحليلى النفسى وهو ما نملك الافتاء فيه منتقلين بعد ذلك إلى الابعاد الحضارية لهذه الظاهرة .

لقد نجح الغرب بفضل العلم أن يعزل ما هو غيبي وحدسي وعقائدي إلى خارج نطاق العقل المنطقي والواعي . لقد تنكر العقل العلمي المنطقي الواعي للأساطير الرموز المعتقدات التي تشكل العنصر المشترك للايمان بغض النظر عن الهوية الدينية . فكل دين يجسد معتقداته على هيئة رموز شكلية (أصنام وصور) في بعض الحالات أو لفظية (كلمات مقدسة) في حالات أخرى ويضفي عليها قدسية الحقيقة المطلقة . وهذه الرموز توقظ في النفوس شوقها إلى تجاوز ذاتها بالتوحد مع ما هو أبدي ومطلق ، وبهذا تتغلب على الخوف من الفناء الذي يصاحب التمسك بالبقاء .

إلا أن التنكر لهذه الحقائق لم يلغ الحاجة الذاتية لدى الإنسان إلى الإيمان بها . والنتيجة الطبيعية للكبت والإنكار هي أن يتحول المكبوت إلى طاقة خفية تعمل في الظلام حتى تجد متنفساً غير مباشر أو تجد لحظة ضعف مواتية فتطفو على السطح وتسيطر على العقل الواعي وتسخره لخدمتها (كما في بعض أنواع الجنون الجزئي حيث يحافظ الإنسان على علاقة عقلانية جزئية بالواقع مع وجود مساحة من الضلال لا تتأثر بالمنطق ولكن العكس تسخره لخدمتها) أو تسيطر على الوعي تماماً وتدمره (كما يحدث في حالات الجنون الكلي حيث تتفتت الشخصية وتضطرب العلاقة مع الواقع) .

لقد كذب العالم وطغاته بالقارعة . ففرضت الحاجة النفسية الإنسانية للتدين عليه أكاذيب تحل محل الدين وتسعى للقيام بوظائفه . فها هي ذي النظم الشمولية والدكتاتورية المباشرة (وقتها في نازية ألمانيا وكذلك فاشية

إيطاليا وأسبانيا والبورتغال علاوة على النظم الشمولية الاشتراكية التى وصلت ذروتها فى روسيا الماركسية اللينية الستالينية وفى الصين الماوية . وما هى نظم تصف نفسها (بصفتها المنتصر فى الحرب العالمية الأخيرة) بأنها الداعيه إلى الحرية والليبرالية والديمقراطية القائمة على النظم الاقتصادية الميالة الرأسمالية . لا تعفيها هذه التسمية من أنها هى الأخرى تقدم بدائل كاذبة للدين . وبينهما عاش العالم الثالث حلم أنه يستطيع أن يتحرر من سيطرة العالم الغربى بالدعوة إلى معتقدات أخرى تحل محل الدين مثل الاشتراكية العربية أو الأفروآسيوية أو غير ذلك . وهى كلها تشترك فى أنها تستغل الحاجة النفسية الإنسانية للتدين ، كما أنها تشترك فى أنها تقدم بدائل كاذبة للدين . فبدلا من مفهوم الخالق المطلق نجد مفاهيم مثل العلم والمادية الجدلية وغير ذلك وبدلا من الأنبياء والرسل نجد ماركس وأنجلز وماو وفيبر وغيرهم وبدلا من الصحابة أو الخلفاء نجد أهل الثقة وأعضاء اللجان المركزية وغيرهم ، وبدلا من المؤمنين نجد أعضاء الحزب ، وبدلا من الجنة والنار نجد الرأسمالية أو الحرية والشيوعية أو الشمولية ، وبدلا من المهدى المنتظر أو القديس الشهيد نجد الزعيم المنقذ أو الأوحد أو الملهم أو المعلم أو القائد الأعظم وهكذا . كل هذه الرموز تبدو وليدة العقل والمنطق ولكنها مع ذلك لا تؤثر تأثيرها الفعال بواسطة العقل والمنطق بقدر ما هو باستثارة ذلك الميل الطبيعى والخفى عن العقل الواعى للإيمان بتلك الرموز والأساطير التى توجد عند الإنسان . أنها قوى عاطفية قوية ومدعومة بالطاقة الغريزية والإيمان الحدسى . أنها بهذا المعنى تشكل الحقائق التى تدعي الاستجابة لمطلب نفسي حقيقي وهو الحاجة إلى الدين .

ولكن لكونها حقائق شبه موضوعية تسعى لتلبية حاجات ذاتية فإنها سرعان ما ينكشف قصورها . المطلب دين . والاستجابة شبه دين . فهو إذا كذب متدين .

هكذا كان حال الدنيا حتى نهاية الستينات . كان الإيمان بقدرات العلم والعقل وبقوة الإنسان المادية التي جعلته يسيطر على الطبيعة قد وصل بالإنسان إلى حالة نشوة . ولكنها نشوة سرعان ما انتهت حينما اكتشف الانسان حدود العقل ومخاطر الخلط بين إدراكه لقوته وبين القوة العظمى التي تخرج عن نطاق حكمه بل التي هي المصدر الأصلي لقوته . الانسان الذي يختلط عليه الأمر قد يذهب ضحية غروره فيرتطم بالواقع الأليم وهو أنه عاجز محدود القوة والارادة . فما هي ذات القوة التي ظن الانسان أنه سخرها لصالحه تتحول ضده . فالطاقة النووية التي أخرجها الانسان من القمقم تهدد بتدميره وتدمير العالم الحي بأسره . وسيطر الانسان على الطبيعة أخذ يقربها من حالة الدمار التي توشك أن يجعلها كالأوزة ذات البيض الذهبي التي يذبحها صاحبها لاشباع جوع مؤقت .

لقد انكشف للانسان أن ما كان يؤمن به وكأنه دين هو أكذوبة . أنه الكذب المتدين وكان من الطبيعي أن يتحول الانسان إلى داخله مستنبطاً باحثاً عن الأصل في القيمة والجوهر في الحقيقة . وفي خضم هذا الاهتزاز العقائدي لم يجد الانسان أمامه ألا الرجوع إلى تراثه القديم بما فيه من معتقدات ورموز وأباطير وقصص حافظت على وجودها الراسخ عبر القرون . بدأ الإنسان في العودة إلى الماضي والحلم به .

فلما إلى الدين وأخذ ينهل من تراث الماضى ما يوفر له الحد المطلوب من الايمان الذى يروى ظمأه إلى الاستقرار العقائدى .

وفى خضم هذا التنقل السريع بين الاعتماد على العقل والمنطق وبين الحاجة إلى الايمان تطرف الانسان فى الاتجاه الآخر . وكان تطرفاً يسعى إلى معادلة تطرفاً مناقصاً . والنتيجة شلل متبادل أو أكذوبة على الوجه الآخر . فالحال الأول كان كذباً متديناً كاذباً . فهذا المد العالمى الذى نجده فى شكل « الرجوع » إلى الدين كاد ينجح لفترة فى اشباع حاجة الجوع البشرية إلى الايمان . أن الحلول المتسرعة والمبنية على حماس طارىء أو غضب متفجر سرعان ما تكشف عن حقيقتها وهى أنها حلول زائفة هى الأخرى . فالكذب المتدين متى يولد نقيضه من المتوقع أن يولد تديناً كاذباً . وهذا هو حال عالمنا اليوم .

فما من حاكم أو صفوة حاكمة ، بل صفوة المثقفين والعلماء ، ألا ونجدها تتسابق وتتبارى لركوب الموجة بالتمسح فى الدين لكى تبرر إستمرار وجودها . فى النهاية تتضح الدوافع الدنيوية (التى يكفيها التفسير الماركسى — الحاجة إلى المادة — أو الفرويدى — الحاجة إلى الدفء والحب — أو الآدلرى — الحاجة إلى السلطة والمكانة الاجتماعية) التى تسعى إلى تسخير الدين لتبرير وجودها وترسيخ مكانتها على قمة الصفوة الاجتماعة . ولكنها جميعاً إذا ما تعرضت للتحليل النفسى المتعمق القائم على الفهم والاحترام لدور الدين فى نمو الشخصية وتفردها وتكاملها فإنها جميعاً سوف تتعرض للانكشاف عن حقيقتها .

فما هو هذا المنظور العلمي النفسي الديني الذي بواسطته نستطيع أن نميز بين الكذب المتدين والتدين الكاذب ونضع الأسس التي بناء عليها يمكن تعريف التدين كمحاولة جادة ومخلصة ومصيرة للوصول إلى التكامل والتفرد والنضوج الذي يسعى إليه الإنسان ؟

أن الإنسان على المستوى الفردي يسعى نحو التكامل بأن يواجه الظل الذي يختفي وراء القناع ويخرجه إلى الضوء ويتعامل معه بوضوح فيتمكن من كسبه لصفه وتسخيره للهدف الأعم بدلا من تركه يتفاقم في الظلام حتى ينفجر أو يتسرب من منفذ جانبي غريب معترف به ، أو يسقط على موضوع خارجي فيبدو وكأن الظل هو ظلام خارجي ملىء بالأشباح والأعداء . وبدلا من أن يكتمل الإنسان بتسخير تلك القوى المعادية الداخلية والصالح معها فإنه يبدد طاقاته بتحويلها إلى عدو خارجي — غالباً وهمي — يدمره بدلا من أن يدمر ذاته . هكذا تمتد الحرب الإيرانية العراقية إلى عامها السادس والفتنة الطائفية اللبنانية إلى عامها العاشر وعشرات غيرهما في العالم الثالث وأغلبها لا يستحي من التمسح بالدين لتبرير العنف والدمار والكراهية والبغضاء .

التكامل يتطلب أن تظهر التناقضات إلى السطح ويتحول الصراع بينهما كمكونات للشخصية إلى حوار وتعاون يخدم الشخصية في النهاية ، لا يدمرها أو يشل حركتها وفاعليتها ، فالوعي واللاوعي أو الشعور واللاشعور ، والقناع والظل ، والذكر والأنثى ، والسالب والموجب ،

والخير والشر ، وغير ذلك من تناقضات داخلية كلها لابد من أن تخرج إلى الضوء ويتم الصلح بينهما ويتحقق من خلال هذا اللقاء والاندماج التفرد والتكامل الذى يجعل الإنسان صحيحاً نفسياً أو متديناً بلا كذب وصادقا بلا إدعاء تدين .

الإنسان الفرد يستطيع أن يحقق ذلك وحده إذا ما أوتى له أن ينعزل عن باقى البشر فى دير أو مغار أو كهف ، أو إذا ما قرر هجرة العالم بعد تكفيره . ولكن مثل هذا المسلك يستحيل فى عصر تكنولوجيا الاتصال والمعلومات بما فى ذلك التجسس والتخابر . بل يمكننا القول أن مثل هذا المسلك — أى مسلك التصوف الانعزالى — كان صعبا أو مرفوضا حتى قبل التكنولوجيا الحديثة . فالانسان الذى يرى الطريق إلى الله لا يمكن أن يسير فيه وحده دون أن ينذر ويبشر ويدعو سواء بالقوة إذا ماأوتيت له أو بالكلمة إذا أتيحت له أن ينشرها أو بالقدوة الحسنة والعمل الهادىء وهذا قد يبدو أضعف الايمان ، ولكن قوته تكمن فى صموده وصبره .

ولذلك فإن الفرد المؤمن فى عصرنا لا يمكنه السكوت فهو مرتبط إرتباطا عضويا وحيويا بمحيطه يزداد إتساعا مع تقدم التكنولوجيا بما يجعله يؤثر ويتأثر بالعالم الخارجى من أقصاه إلى أقصاه . فالقنبلة التى ألقيت على هيروشيما لن تخلو من التأثير على حياته بل أن القمامة أو الفضلات التى تلقى فى البحار والأنهار أو تحرق فتلوث الهواء أصبحت تدخل فى عقر داره . ولذلك فهو مسئول أمام العالم مثلما هو مسئول أمام نفسه وأمام ربه .

الفرد الساعى إلى التكامل والتفرد والصحة النفسية لا يمكن أن يحققها بمفرد ولا بمعزل عن المحيط الانسانى والمادى الذى يمتد إلى كافة أركان العالم. أن قضية الدين لا يمكن فصلها عن الحضارة وبالتالى عن السياسة والاقتصاد والثقافة والعلم. ولذلك فلابد أن يدلى الكل بدلوه.

وهنا يأتى دور الاسلام. فالاسلام قد أتاح للانسان واجب التعقل والتفكر ونبذ التجنين والتفكير لكل مخالف، وأتاح الدعوة بالكلمة الحسنة. والأهم من كل هذا أن الاسلام قدم نموذجا — صحيحا أنه نادراً ما طبق بصورة ناجحة أو دائمة — للتوحيد والجمع بين المتناقضات. فلا دين منفصل عن دولة ولا آخرة عن دنيا ولا كهنة من عباد. وكافة الأنبياء والرسل عند ربهم سواء لا يفرق بين أحد منهم.

٢ - الجبهة الواحدة قبل مواجهة الصراع العربى الاسرائيلى

أن الاستغلال الواعى للسلام الهجومى يتطلب منا أن نعيد التحالفات فى ظل إعادة بلورة القضية كالآتى .

١ - نحن واسرائيل والأنظمة العربية النفطماليه وغيرها ممن يعتمدون عليها أو يستشيرونها صرن حبيسى قفص تمسك بمفتاحه الولايات المتحدة .

٢ الذى يهم الولايات المتحدة أن يبقى الذين فى القفص فى حالة صراع دائم دون تنسيق ناهيك عن وحدة تهدد بقيام قوة عظمى أخرى من المنطقة حتى ولو كانت إسرائيل .

٣ — ولذلك فإن الولايات المتحدة تحافظ على التوازن العسكرى بين إسرائيل منفرده والدول العربية مجتمعة . وبما أن الدول العربية غير مجتمعة (ألا على عزل مصر) فإن إسرائيل يغريها أن تكون دولة عظمى ترتع وتعربد فى المنطقة ولكن دون قدرة على توحيدها لتقوم فى المنطقة دولة عظمى حقاً .

٤ — أن مصر تملك إمكانية توحيد المنطقة بأكلها دون الاعتماد الأساسى على العربدة العسكرية ولكن على أساس الفكر الإسلامى المستنير الذى يوفر لحياة المسلم والمسيحى واليهودى والفلسطينى حقه فى المواطنة الكاملة والحياة الكريمة بأفضل ما توفره النظم المتعلقة والقائمة على العصبيات القبلية والدينية والصهيونية .

٥ ـــ أن الثورة الإسلامية العربية المصرية ضرورة . تمليها ظروف عجزنا المادى فى مواجهة الغرب وعليه فيـكون السلاح الذى نواجه به خصمنا ليس هو السلاح الذى يصنعه ويبيعه لنا بأبهظ الأسعار ولـكن يجب أن يكون سلاحاً عقائدياً قابلا التطبيق .

٦ ـــ أن مثل هذا التطبيق الإسلامى يجب أن يكون هادئاً مستنيراً تدريجياً ، وهو ما يتفق مع طبيعة مصر ، ولـكنه مع ذلك يجب أن يكون ثورياً بأن يشرك الجماهير فى صنعه والدفاع عنه بكل ما تملك .

٧ ـــ أن ما نتجاهله فى المطالب الشعبى لإقامة المجتمع الإسلامى هو ما يكمن وراءه من مطالب دنيويه بأن يتحقق حد أوفر من العدالة والمساواة والحرية والأخاء الآن وليس فى إنتظار الجنة . وبدلا من ذلك ندخل فى جدل فقهى عقيم فى حوار اصم .

٨ ـــ أن فتح باب الحوار مع المعارضة غير الرسميـــة مثل الجماعات الاسلامية سواء المتطرفة أو غيرها لا يأتى باستدعائها إلى السجون ولـكن بالنزول إليها مباشرة والنزول فوراً إلى الميدان الاجتماعى للعمل التعاونى الذى يحقق الخير والصالح الجماهير .

٩ ـــ الجبهة المطلوب تـكوينها يجب ألا تقتصر على الصفوة الممثلة فى القيادات الحزبية الشرعية ولـكن يجب أن تدعو القيادات غير الشرعية وغير الرسمية الممثلة الطبيعية لجماهيرها .

١٠ ـ أن إقامة مثل هذا المجتمع الإسلامى المسالم ، بلا عنف ثيوقراطى أو قهر ديكتاتورى أو عنصرية قبلية ، عليه أن يثبت بالممارسة أن هناك

مثال للمسيحين فى أوطانهم حيث الغالبـــة المسلمين بل أن هناك مكاناً لليهود إذا ما أصبحوا يتحدثون العربية (وهذا حتمى) فـكل من تحدث العربية فهو عربى . وكل من آمن بالله . ورسله واليوم الآخر فهو مسلم . فلا خلاف - رغم إختلاف الأديان فقهياً - أننا جميعاً مسلمون موحدون بالله .

١١ - أن مثل هذا النهج السلمى البطىء لهو الخطر الحقيقى على مصالح صناع وتجار السلاح ومثلهم فى الأنظمة الأمريـكية والاسرائيلية والعربية النفطالية الانفتاحية ولذلك لابد من الحيطة والتدريج .

١٢ - أن إسرائيل تفعل المستحيل لتتحلل من كامب ديفيد وتتفق معها فى ذلك تلك الأنظمة العربية التى تخاف الزعامة المصرية أو الاستقلال المصرى ناهيك عن خوفها من التفاهم المصرى الاسرائيلى الأمريكى (وهو مستبعد) .

١٣ - لذلك وجب علينا أن نتصرف بهدوء وتعقل ونتعرف على أطراف الصراع نحالف من فى صفنا ونحيد من ليس معنا ونستعد لمن يستعد للانقضاض علينا .

١٤ - وختاماً فإن التدريج لا يعنى البطء أو المماطلة بل لابد من البدء الفورى والثورى حتى ولو كان فى البداية فوقى . وهنا يتحمل الحزب الحاكم مسئوليته .

٣ — جدوى الحوار الديني

حينما يتحاور المسلمون معاً فإن الحديث ينتهى عندما يستشهد فقيه منهم بأن قال الله وقال الرسول وإذا شاء الحظ أن يكون هناك من هو أفقه منه فإنه يستشهد بأقوال أخرى عن الله والرسول تفند ما قاله المتحدث الأول . ويتحول الحوار إلى سفسطة حول صحة تفسير عن مذهب أو إمام يتبعه المتحدث . وتضيع المشكلة الواقعية ويتحول الحوار إلى حديث الصالونات إذا كان مهذباً أو عراك ينتهى بحروب يتقاتل فيها المسلمون .

أننا لا شك نعيش فترة احباط وضياع وتشتت . ونبحث بشكل غامض عن عقيدة نلتف حولها وتلهب مشاعر الجماهير ليلتفوا حولنا . والتيسير فى هذه الحالات أن يزايد كل طرف فى رفع الشعارات متجاهلا الواقع الموضوعى . وينتهى الأمر بالتشرذم والمنافسة حول من منا أحق بالأمامة : أهو الامام الخمينى أو النميرى أو ضياء الحق أم القذافى أم فهد أم غيره ؟

ما نحن فى حاجة ماسة إليه ونحن نواجه الواقع الأليم هو الموضوعية والواقعية . فهناك ديون وأراضى بائرة ومصانع معطلة وتجارات خاسرة (ما عدا الاتجار فى الفساد : فى السلاح والمخدرات والدعارة ، والثالوث المربع الذى تسيطر عليه مافيا تعجز يد القانون أن تمتد إليها) .

ومثل هذه الموضوعية ممكنة لو جلس أصحاب العقائد المختلفة والتفوا حول تحديد ومواجهة مشكلة فى الواقع . والذى يحتاجه البيت يحرم على الجامع ومصر فى حاجة إلى مثل هذا الحوار أكثر من غيرها ، فأقباط مصر

هم أشد تمسكاً بوطنيتهم من أى أقلية فى الشرق الأوسط ، حتى يهود إسرائيل . وهم يحبون مصر ويرتبطون بها جيلا عن جيل منذ آلاف السنين . أما المسلمون فأغلبهم أقباط (من قبط وتعنى مصر ويشتق منها إسم مصر بالأفرنجية « ايجيبت » وهى تحريف لكلمة « جيبتوس » أى مصرى .

استمروا فى إيمانهم بالتوحيد الذى عرفوه من قبل وأضافوا إيماناً برسول يختم سلسلة الأنبياء حتى يستطيعوا بعد ذلك أحكام العقل والإرادة دون إنتظار لمنقذ من السماء (أى اعتنقوا الإسلام) واختاروا أن تكون لغه حوارهم العربية . وبهذا جعلوا مصر مرة أخرى هى الرائدة القائدة للمنطقة . فإذا لم تكن الزعامة تحت رأية فرعونية فلتكن تحت راية عربية إسلامية . هذا قدر مصر وهذه مسئوليتها .

ولهذا فلا تناقض بين الوجود القبطى والوجود العربى الإسلامى ما دام الاثنان يتفقان حول الولاء الأول : البيت قبل الجامع . فلا إيران يهمها الاسلام قبل مصالح إيران ولا السعودية يهمها الإسلام أو العروبة قبل مصالح الأسرة المالكة والعنصر النجدى الوهابى دون الحجازى ودون الشيعى ولا ليبيا تهمها مصالح العروبة والإسلام بل حتى حقوق الشعب الفلسطينى قبل مصالح ليبيا . أما سوريا فصلحة العلويين . أم من مصلحة الأغلبية المسلمة والإسلام والعروبة . أنها كلها نظم حاكمة أو ليحاركية تدعى ما لا تفعل وتقدم لأمريكا واسرائيل بصمودها وتصديها أو بتوريط مصر فى مواجهات لا قبل لها بها أكثر مما قدمته مصر بـ « تنازلاتها » فى إتفاقيات السلام مع إسرائيل . فإيران بالتعاون مع سوريا وليبيا تحارب العراق العربية وتضع الخليج مباشرة تحت رحمة تهديدها . والسعودية تبذل

ما فى وسعها لتسفيه مصر وتقليص دورها وعزلها أملا بأنها بالمال وحده تستطيع أن تحصل على الزعامة . والنتيجة أن المبادىء والمقائد والأديان صارت سلعاً للمتاجرة . تدعم الصفوة النفطية المالية أى إتجاهات دينية متطرفة ليس تطرفاً فى حب الدين ولكن تطرفاً فى الغيرة من مصر والخوف من نهضتها وقيادتها قائدة زعيمة مستنيرة .

أن ما تحتاجه مصر لبناء بيتها يحرم على الجامع الذى لسنا فى حاجة إليه (فالإيرانيون أنفسهم يصلون فى الخلاء ولا حاجة لهم لجوامع) . وما تحتاجه مصر هو البناء الذى يتكاتف فيه كل مصرى بدافع من إيمانه بالإله الواحد وبغض النظر عن التسمية الدينية أو التصور المشوه لعقائد الآخر (أننا نؤمن بالتوحيد وهم يؤمنون بالتثليث فكيف الحوار ؟ وغير ذلك من أعذار) . ليس هناك دين لا يدعو للخير والايثار والعمل البار واطعام المساكين وانصاف المظلومين . ولدينا من هذه المشاكل ما يمكن أن نجند طاقاتنا حول حلها للبناء المتعاون متكاتفين متآخين .

ولذلك فإننا نطرح اطاراً للحوار يبدأ وينتهى بالعمل الصالح القائم على إعتصام المؤمنين جميعاً بحبل الله ومن أجل البيعة قبل الجامع . مصر مليئة بالمشاكل التى يمكن حلها بالجهود الذاتية وبالوازع الدينى . وبواسطة هذا المدخل الإيجابى لإقامة الحوار يمكن أن نقضى على ظواهر التطرف والاحباط والهروب فى المخدرات .

وما ندعو إليه نفعله بواسطة حفنة صغيرة من المؤمنين تجاوزوا التعصب والسفسطة وأخذوا يضعون أياديهم فى التراب للبناء والاخصاب

بدلا من إستخدامها للدمار . أنها تجربة حية و ليست دعوى نظرية ، ويقوم بها شباب مؤمن من أعضاء الجمعية العلمية المصرية للتدريب الجماعي بالتعاون مع الجمعية الطلابية وتحت إشراف أساتذة مواد طب وسلوكيات المجتمع وبرعاية عميد كلية طب الأزهر .

٤ ــ الجبهة الوطنية وسيكولوجية الجماعات .

أن دعوة الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى لتكوين جبهة وطنية وما أثارته من نقاش لهى تعبير عن قضية تؤرق المجتمع المصرى منذ فترة فمنذ إنتهاء الصراع العسكرى مع اسرائيل وإغلاقه باتفاقية سلام وقع عليها الطرفان . ونفذتها كل الأنظمة العربية عملا رغم معارضتها لها قولا ، ونقضتها إسرائيل عملا بينما شكت من معارضة الغير لها لفظاً . منذ هذا الوقت وفقدت مصر العنصر البدائى الذى يمكن أن يجتمع ضده كافة مكونات المجتمع . أنه عنصر بدائى لأن وحدة الجماعه التى تحتاج إلى عدو خارجى واضح ومحدد إنما هى وحدة هشة ولا كيان لها . فالعدو الخارجى لأى جماعة لا يمكن إختصاره إلى عدو واحد على حساب تجاهل العداء الطبيعى بين هذه الجماعة وغيرها من الجماعات مع إختلاف درجة العداء ، ناهيك عن الجهاد الأكبر من العدو الداخلى .

أن الواقع الذى أملى على كل من مصر واسرائيل أن يغلقا باب التحاور بالحديد والنار ترك كلا منهما عارياً بلا عدو خارجى يوحد صفوف الداخل . ولكن إسرائيل تعجلت ولم تنتهز الفرصة للشفاء من عقدة الحصار التى لا نهاية لها ألا بالدمار ، فانقضت على العدو الخارجى الذى ما زالت

تضخم حجمه وتسقط عليه كل رذائلها وهو الفلسطينين خاصة والعرب عامة ، ويا حبذا لو تراجعت مصر هى الأخرى وانضمت إلى الأعداء . فأجلت بذلك إسرائيل صراعاتها الداخلية وتمكنت من تخفيف وقع الأزمة الاقتصادية بل لم تتوان عن الانزلاق فى طريق التطرف الذى يمثله الحاخام مائير كاهانه .

ولجأ كل نظام آخر إلى حيلة مشابهة بأن تمسكوا بعدو خارجى لفظاً بينما وجهوا المقاطعة الفعلية إلى النظام المصرى (باستثناء الأردن وبشكل مشوب بالخجل العراق ومنظمة التحرير ، هذا عدا بالطبع الدول التى أيدت مصر منذ البداية ومثل عمان والسودان) . ولم تبادل مصر أحداً العداء بل مدت يد العون شبه الرسمى للعراق فى صراعه مع إيران والعون غير الرسمى على هيئة هجرة العمالة المصرية بشكل فردى وغير منظم لدعم الأنظمة العربية الأخرى دون موقف مقابل من تلك الأنظمة . بل هناك شك فى مدى الفائدة الاقتصادية الحقيقية لمصر من جراء هذه الهجرة المؤقتة . وخاصة أن هؤلاء العاملين سوف يعودون حتما مع ضيق أزمة البترول .

لم تجد مصر عدوا خارجياً يوحد صفوفها الداخلية . وذلك رغم محاولات المعارضة لإنكار وجود كامب ديفيد وتوهم إمكانية العودة إلى الماضى جعل إسرائيل (وحليفتها أمريكا فى المقام الثانى) هى العدو الخارجى الذى يمكن أن يلهب الحماس و يوحد الصف المصرى .

ولعل هذا الغياب حتى ولو كان جبرياً للعدو الخارجى هو الذى حول الغليان المصرى إلى الداخل . فكانت أعمال العنف ومحاولات اثارة

الفتنة الطائفية أو الفتنة الدينية (بين الجماعات الخارجة عن دائرة النظام وبقية المجتمع الذى يعتبر من وجهتهم مجتمعاً كافراً يجب اسقاطه أولا) . وتتوجب فى مأساة المنصة .

وهنا نواجه خطورة تبسيط العدو الداخلى فهو أما مسلم صحيح (غالباً على هامش النظام ومحروم من النصيب الذى يستحقه فى القيمة السياسية وهى الملكية والسلطة والاحترام) أو كافر مدع للاسلام لا تفاهم معه . (ويمكن تبسيطه إلى شخص واحد كما حدث فى المنصة) .

الجبهة إذا هى تلك التى تستطيع أن تجمع هذين الطرفين اللذين انعدم الحوار بينهما . ولم يخفف من انعدامه أن استخدم النظام لغة الإسلام للدفاع عن وجوده ، بل على العكس زاد من تفاقم المشكلة فادام « الإسلام » هو المرجع وليس الواقع بمشاكله فالغلبة للمتفقهين فيه والرافعين لرايته . وهنا تكون خسارة النظام حتمية . فهو لا يجادل على أرضه التى هى المشاكل اليومية للواقع .

ولكننا من جانب آخر وهى أنه لو اقتصر الحوار على أمور الدنيا بمنطق الدنيا ، أى فى اطار العلمانية بمفهومها الغربى المنفصل عن الدين ، فإن تحديد المشاكل (الاسكان ، التعليم ، الصحة ، الصناعة ، الزراعة الخ) ومجابهتها تكون قراطياً بالمنطق والحساب أيضاً لا يبشر بالخير . فالمشاكل كبيرة والإمكانيات المادية محدودة والدافعية منعدمة (غياب القضية الوطنية ، غياب الجبهة) .

الحوار إذا لابد أن يشمل أمور الدنيا وأمور الآخرة معاً ، أو الوقع والأمل ، أو المصالح القائمة والمبادىء . وعدوه الخارجى يجب ألا يلخص إلى كيان محدد ومعزول عن كافة القوى المساندة له ، سواء كان إسمه كامب ديفيد أو أنور السادات .

فى هذه الحالة فإن الحوار بين النظام وهامش النظام يجب أن يشمل مشاكل الواقع ولكنه فى ذات الوقت لابد أن يوفر حلاً وأملاً يخفف من آلام ذلك الواقع ويحفز الدافعية لدى الجماعة لمجابهتها . والعدو المشترك فى هذه الحالة سوف يكون الفجوة بين المركز والهامش ، بين الثراء الفاحش والفقر المقذع ، بين التقليد الأعمى مع التبعية للحضارة الغربية وبين السلفية . والحلم الوطنى هو كيفية تحقيق الوحدة حو الهدف المشترك الذى يجمع أشتات المجتمع المصرى . فوحدة مصر هى التى تواجه الخطر الفورى وليست الوحدة القومية العربية ولا الاممية الاسلامية فهذه شاة تم ذبحها فماذا مصيرها بعد ذلك ؟ وإذا كان إمتداد مصر الطبيعى يغطى تلك الدوائر المحيطة بها — العربية والإسلامية والافريقية وغيرها ، فإن الانتشار عروبة أو إسلاماً أو أفريقياً لا يمكن أن يتم بدون قوة الجذع وهو مصر . أن وحدة مصر وقوة مصر من الشروط الأساسية لمجرد الحديث عن وحدة أو حتى تعاون بين محيطها .

وفى تخطيط مصر لمسيرة توجهها عربياً وإسلامياً فإن الذى يواجهها هو ذات التحدى الذى واجه الإسلام فى فجره هل تستطيع من موقع القوة المادية المحدودة والالتزام بمنهج السلام (فهى ملتزمة بمعاهدة مع إسرائيل وملتزمة بمبدأ ووجدان يمنعها من محاربة مجتمع عربى حتى لو كان

نظامه الحاكم منحرفاً أو مضللا) أن تجعل من نفسها قدوة لتحرير الإنسان المظلوم وتحقيق العدل الاجتماعى وتوفير التكافل فتكتسب فى صفها الجماهير العربية التى بدأت تنكشف أدعادات أنظمتها سواء أدعت الإسلام أو الاشتراكية ؟ هل تستطيع مصر بمعاونة أقباطها أن تقدم صحوة إسلامية حقيقية لا تعصب فيها ولا تطرف ولا تعجل ، تتقدم بتأنى وتستوعب من الغرب ما تستوعب ؟ .

أن الجبهة الوطنية يمكن أن تقوم بمجرد الالتفاف حول مواجهة المشاكل كما أشار الأستاذ محمود توفيق فى الأهرام أخيراً . ولكن إستمرار الجبهة وانتشارها عبر الزمان والمكان - أى انضمامها إلى تيار الصحوة الإسلامية الصاعدة لا ينفع بدون فكر . والفكر كما أشار الأستاذ الشرقاوى لا يحق لأحد ولا يستطيع أحد أن يفرضه والأستاذ الشرقاوى ذاته يرفض أن يفرضه حتى لو استطاع . ولكن الفكر يتولد من الحوار والحوار يكون بناءاً حينما يبدأ حول مشاكل واقعية ملموسة .

أن الحوار حول الإسلام الذى يغلب على الساحة لهو حوار يدور حول التفاصيل وينسى الجوهر . والجوهر أن الإسلام كسب بالسلام والدعوة إلى العدالة والحرية أكثر مما كسبه بالحرب والقهر واختلاق العدو الخارجى والجبهة الوطنية التى سوف تتحاور حول القضايا الدنيا بهدف تحقيق العدالة والحرية إنما هى ذاتها التى سوف تفرز الفكر الإسلامى المستنير والموائم للعصر والذى تسيطر عليه القوة المادية العلمية الغربية . فالصحوة الإسلامية صحوة دنيا وواقع ومادة مصحوبة بصحوة

آخرة وما يعنى ذلك من تحقيق للمبادىء الروحية الدينية السامية . لا فصل فيها بين دنيا وآخرة ، أو دين ودولة أو ثيوقراطية وعلمانية . أنها جميعاً ثنائيات نشأت فى الغرب ولا تمثل قضية لنا ألا بالقدر الذى نقلد فيه الغرب.

أما الحديث عن أمجاد الماضى بدون إشارة لقضايا الواقع ، وتجاهل نقد الأنظمة العربية التى تلقى على النار وقوداً بأن تهاجم مصر من المنطق الإسلامى (مثلا بإثارة المزايدات حول التطبيق الفوقى الفورى للشريعة الإسلامية الذى ثبت من تجربة السودان أنه ليس ألا وسيلة لاخفاء الظلم والفساد . مع تكريسه والسودان ليس ألا بداية) . . أن هذا ليس ألا تعمية وانزلاقاً بلا وعى فى المخطط الذى أشار إليه بوضوح أكثر من كاتب ومفكر أمثال الدكتور فؤاد زكريا والأستاذ الشرقاوى وغيرهما . وهو مخطط التحالف غير المكتوب للاستعمار بصهيونيته والصفوات العربية التى سربت أموال العرب إلى بنوكه بدلا من أن تبنى مصر كصرح للأمة العربية ، والذى يهدف إلى أضعاف مصر ودوائرها باستخدام ذات السلاح الذى يمكن أن يوحدها وهو الوحدة سواء العربية أو الاسلامية . فالنغمة متشابهة فى أدانة مصر . خروجها عن العروبة وخروجها عن الاسلام . فإذا كان بإسم العروبة أو الاسلام تحاصر مصر وتخنق فيجب أن نتذكر أنه بواسطة التمسك الحاسم بأن مصر هى قلعة العروبة والاسلام بل هى لب العروبة . الاسلام يمكننا أن نجابه تلك القوى المعادية .

وعروبة مصر وإسلامها هى التى تحقق للمواطن العربى الاسلامى بغض النظر عن هويته الوطنية أو المدينية ـ أن يجد فى مصر ملاذاً ومنارة.

فلم لا تشمل الجبهة ممثلين لتلك التيارات العربية والاسلامية المستنيرة كما تشمل غير المسلمين ؟ إذ لعل فى هذا التعدد ضمان عدم التطرف فى الانفعال والالتزام بالحوار المنطقى والهادىء .

• — الاسلام المستنير هو الذى يخيفهم

لا شك أن ما بلوره الدكتور فؤاد زكريا فى سلسلة مقالاته واتفق معه فيه الكثيرون (مثل د . أ . عبد الرحمن الشرقاوى و د . فرج فودة و د . أحمد عكاشه وغيرهم) أن ما يبدو ظاهرياً كأنه صحوة إسلامية إنما هو فى الحقيقة صراعات سياسية تستوجب التفسير العلمى . فإن ما يحدث اليوم بإسم الاسلام ليس ألا مجرد جزء من لعبة سياسية تواكب مصالح كل من الاستعمار والصهيونية و الانفطالية الانفتاحية ، تهدف من ورائها إلى أيرنه المنطقة (مثل إيران) أو لبننتها (مثل لبنان) أو سودنتها) (مثل السودان) أو غير ذلك من الانماط المدعية للحاكية الاستبدادية أو الفوضوية بإسم الاسلام . فالخوف الحقيقى لهذه القوى الصفوية العالمية التى تسعى للاستحواذ لنفسها على أكبر قدر من القيم (المال والسلطة والاحترام) هو من صحوة هذه المنطقة بوحدتها تحت راية أيديولوجية تعطيها طابعاً مميزاً ولكنه إنسانياً ومتفتحاً فى ذات الوقت . والاسلام به كل هذه المزايا : فهو اطار دينى وحضارى مرن متفتح قابل للتطور بالاجتهاد ومجاله واسع يسمح بجمع قيم العدالة التى تتمثل فى الاشتراكية والحرية التى تتمثل فى الليبرالية . وهو فوق هذه الاطار الذى يجمع بين الواقعية والمثالية ، وشئون الدنيا وشئون الآخرة . ولكن مثل هذا الاسلام

لا يمكن أن تقوم له قائمة وهو غارق فى الخلافات حول من هو الأحق بالتفسير والتنفيذ : الفقيه (مثل إيران الخمينى) ، العلمانى ، (مثل سودان النميرى) أو الجامع بينهما (مثل ليبيا القدافى) . وخلافات أخرى بين إسلامى الثورة (الجماعات الإسلامية مع كل خلافاتها الداخلية) وإسلامى الثروة (مثل النظم الطبقية أو القبلية الحاكمة والمالكة للثروة) بينما المحافظون يحافظون على ولائهم للمنتصر أو المتوقع إنتصاره .

ولكننا لا بد أن نضيف أن التناول الدنيوى البحت لشئون هذه الدنيا له محاذيره . فمشاكلنا الاقتصادية بشكل خاص والحضاريه بشكل عام لا يمكن حلها فى فترة عمرنا ولكنها تتطلب التفكير الاستراتيجى الطويل المدى للحل . . من أجل أبنائنا وبواسطتهم . وما دام هذا هو الواقع المرير فلابد من حلم ، من أمل ، يصبرنا على الواقع ويشحذ عزيمتنا للعمل من أجل تطويره . وهذا هو دور الأديان فى الحضارات . أنها تقدم الحلم والأمل وتطرح القيم الروحية العليا بتجاوز الذات والعمل الكادح والانفاق المستمر من أجل الخير والصالح . وهذه هى القيم التى تجعل الإنسان المستضعف فى الأرض يصبر على الجهاد فى سبيل الله فيكتسب بفضل ضعفه القوة من مثابرته واستمراريته .

أما فى الغرق الجدل حول تطبيق هذا أو ذاك من أوجه الإسلام ، وخاصة الشريعة والحدود ، بما يبرر للظالم أن يكرس ظلمه بإسم الحاكمية

الإسلامية والآلهية ، أو حول اكتشافنا بعد خمسة عشر قرناً أن القرآن تنبأ بما اكتشفه العلم اليوم بعد إجتهاد ومعاناة ؛ فإن كل هذا ليس إلا مبرراً للاستمرار فى الرضا الكاذب بأن ليس فى الامكان أبدع مما هو كائن : وهو أننا جميعاً نصفق للإسلام وندعو له . وأن ذلك يكفى لكى ترفرف علينا أجنحة العدالة والحرية والعزة . أننا نعيش أحلام يقظة وخصومنا يسعدون بذلك . والتحدى الذى يواجهنا هو فى مدى قدرتنا على أن نصحو من الحلم وأن نترجم الحلم إلى الواقع . وذلك من خلال اكتساب القدرة على التعامل مع الواقع بكل ما تحقق من اكتشافات علمية دون أن نتنازل عن المثال وهو أن تراثنا الدينى الإسلامى يوفر لنا المناخ لأن نجمع بين النقائض : الدنيا والآخرة ؛ الشك والإيمان ؛ العلم والحكمة ؛ المتعة والزهد ؛ القوة والدماثة ؛ وغيرها من الصفات التى ما زالت تتجسد فى مثال الرسول الختامى ﷺ . وما بعده فهى زلات ومحاولات أغلبها قاصر وقليلها ناجح . والفشل لا يبرر معاودة المحاولة . والمحاولة لتنجح لابد أن تتم فى الواقع لا فى حلم اليقظة . فهذا هو معنى الحلم والايديولوجية . لا مناص من التحمس فى البحث فى تراثنا الإسلامى . ولكن لابد أن نتذكر أن التراث الإسلامى تميز بقدرته على أن يكون شاملا وجامعاً ؛ يفتح أبوابه لاسهامات كل من سبقوه من رسل وكل من عاصروه من علماء . لا غنى لنا من عربى أو أعجمى أو مسلم أو قبطى . الجميع ساهموا .

هذا ما نحن بصدده . أن نجمع ونجتمع ونستمع لكل صاحب

رأى أو موقف حقه . ولا مناص من الحوار والمحاولة المخلصة للاستماع إلى الوجهة الأخرى . أما فرصتنا بينما تغلى « البنفطمالية الانفتاحية » بإسلامها الثروى ينكشف وبينما تعجل الثورية الإسلامية غلبت عليه سمة التهور والتخبط . أننا ونحن فى هذا الظلام لابد وأن نبحث عن الشمعة التى تجعل من الإسلام سراجاً منيراً وطريقاً مستنيرا .
هذا هو الجهاد الاكبر .

٦ - رسالة مصر الإسلامية الإنسانية

ان الدعوة إلى الحوار التى طرحها المفكر العربى الكبير الدكتور فؤاد زكريا تستوجب على كل مواطن ، مهما كان تخصصه أو منطلقاته الفكرية. أن يدلى بدلوه . فيشترك فى الحوار وينوب عن آخرين يتفقون معه فى الرؤية وأن لم يبادروا بمحاولة صياغة الاسس العقائدية لمواقفهم . فكل منا فى فعله يمارس وجوده ويعبر عن عقيدته . وهو صاحب عقيدة سواء كان يعيها فيسميها ويحددها . أولا يعيها ولكنه يمارسها فى لحظة إختيار الفعل . فالفعل لا يتحمل فالحياد . ويصحب كل فعل مفعول به حيث عادة يكون المكسب للفاعل والخسارة للمفعول به . وكثيراً ما تكون الخسارة للطرفين. ولكن هناك إمكانية أن تكون العلاقة بين الفاعل والمفعول به مرنة وتتبادل فيها الأدوار ويتبادر أمامها نتيجة للتفاعل مكسباً متبادلا للطرفين . لعل هذه هى القاعدة الأولى التى يجب أن ننتهجها فى الحوار وهو الذى يقوم بتفاعل بين ندين لا بين فاعل ومفعول به .

من هذه القاعدة نستطيع أن ننطلق إلى الخطوة التالية . أن الحق الذى أعطيه لنفسى أن موقفى هو الصائب وكذا العقيدة التى يرتكن عليها يعنى ضمنا أن الآخر يملك حقاً مماثلا . وعليه فيجب أن أحذر من إيقاف الحوار بإلغاء الطرف الآخر بناء على اعتقادى بصوابى وضلاله . إذ بهذا أحول الآخر إلى موضوع أو شىء لا ذات أو إنسان آخر مثلى . أنى إذا امتهنت إنسانيته بامتهان حقه فى الإيمان بما يؤمن به . إنما امتهن فى النهاية

نفسى بأن أعطى هذا الآخر الحق فى حالة تمكنه من النصر على بالقوة ، أن يلغى ذاتى وإنسانيتى . ولهذا ، فالحوار لابد أن يبدأ بمبادرة من يملك القوة . وهم فى حالة المجتمعات الحديثة من يملكون السيطرة على المؤسسة السياسية المركزية وما تتمكن من تسخير المؤسسات تصب فيها أو تتحاور معها أو تخضع لها قسرا (رغم التفاهم فى الظلام) .

الدولة بمؤسساتها الإعلامية والتشريعية والإدارية والحزبية بدأت فعلا بالحوار منذ أن مهدت السبيل للحركات الدينية المناوئة للأجنحة اليسارية فى النظام السابق (قبل ١٩٦٧) ووجد هذا التشجيع مناخاً شعبياً مرحباً . فالهزيمة العسكرية الساحقة هزت إيمان الناس بالشعارات والرموز السابقة : وهى أساساً القومية العربية والاشتراكية . وعندئذ بدأ التحول نحو المزيد من الليبرالية العاكسة لنصرة المعسكر الغربى (بشقية الأمريكى الأوربى أساساً علاوة على السوفيتى) فالغرب برمته انتفع بألا تقوم للأمة العربية قائمة وأن تستمر مفتتة متناحرة عاجزة عن تنسيق جهودها من أجل نهضة تواجه بها إستمرارية سيطرة العالم الغربى على العالم العربى أو الإسلامى أو الثالث .

وهنا بعد اهتزاز أسطورتى القومية وعالم عدم الانحياز (الثالث فى أغلبه) انطوت إهتمامات ذلك العالم نحو داخله باحثة عن عقائد بديلة تلهب حماسها وتصبرها على الكفاح ضد السيطرة الغربية . ونشأت الانتفاضات الدينية نظراً لما تملكه القيم الدينية من قدرة على اثارة وجدان الجموع بما يجعلها تضحى بذواتها فى سبيل بقائها كتراث عقائدى .

ثم اهتزت أسطورة الدين فى العالم الغربى بأن انفصلت الكنيسة عن الدولة ثم خضعت لها وتعرضت لتسفيهها باسم العلم . ألا أن نصرة الايديولوجيات البديلة القائمة على العلم أساساً جعلتها تتحول إلى بدائل هزيلة للدين . فهى لم تدع لنفسها رسالة سماوية تنزل لتعم كافة البشر فى يومه وغده ولكنها كانت فى النهاية تمثل مجرد ترسيخ لعنصرية الرجل الأبيض فى العالم الغربى . ومثل هذه الاسطورة تفقد بريقها سريعاً وهى أن انتعشت فى أوقات القتال فقد تعرضت للاهتزاز بأكثر ما تعرضت ابان السلم . وهنا بدأت دورة التشكيك فى العقائد القائمة على العلم والمنطق وحده دون الأخذ فى الاعتبار حاجة الإنسان إلى عقيدة تمكنه من تجاوز المحسوس إلى المجهول والذاتى المحدود إلى الموضوعى اللانهائى .

وانطوى الغرب فى ظل السلام الذى حققه لنفسه ليبحث فى داخله عن مصدر جديد للعقيدة الدينية التى تمكن الإنسان من تجاوز مكانه وزمانه والالتحام بالأبدى اللامحدود . وترك العالم الثالث ينوب عنه فى التقاتل وخاصة باسم الدين وهو أفضل ما يضمن إستمرار تقاتلهم حتى الفناء المتبادل . أراح الغرب نفسه من هم الصراع مع العالم الثالث وتركه يتصارع فيما بينه نيابة عنه . يبيع خاماته وعمالته ويتقاضى فى المقابل أدوات دماره مع حد أدنى من المعونة يبقى بعض المقاتلين على قيد الحياة حتى لا يتوقف القتال ولا يتوقف الإنتاج المحدود الذى يقايض بالسلاح المدمر .

ان حضارة الغرب منذ عصر الرومان أو قبله كانت دائماً وأبدا حضارة قوة . تفرض قيمها بما تملك من قوة لا من حق . وفى كل مرة يحتج الشرق

بأن يفرز نبياً يلتف حوله المستضعفون فى الأرض بما يهدد السلطان ، تمكن هذا الأخير من تبنى شعارات وأساطير الجماهير المستضعفة ولكن الناقة . ومارس الغرب بإسم الديانات اليهودية المسيحية سيطرته وقهره للشرق بيهوده ومسيحييه ومن هنا جاء الإسلام معبراً عن حاضر الإنسانية التى لا تهمد إلى العدل واعلاء الحق فوق القوة . ولكن الصحوة الحضارية الإسلامية التى جاءت معبرة عن المستضعفين فى الشرق تمكنت من التحرر من سيطرة الغرب وقدمت للإنسانية بديلا للقوة ممثلا فى حضارة إضاءات للإنسانية عبر عدة قرون .

وككل منتصر يرتخى فينددثر شهدت الحضارة الإسلامية عصور ظلامها . وباتت غارقة فيها حتى اليوم . وكلما زادت سيطرة الغرب كلما قامت الانتفاضات المناهضة له الرافضة لسيطرته . ولكنها لم تتصد له بما يملكه من قوة ولم تمرس عليه الحوار بما يحتاجه من حق . فهى أضعف من أن تتحداه بالقوة المادية وأجهل من أن تتحداه بقدرتها على التحاور معه بتقديم ما ينقصه وهى قيم الحق فوق القوة ونصرة المستضعفين فى الأرض . أننا نرد القوة بالقوة (أو الإرهاب كتعبير عن العجز) فينتهى بنا الأمر بالهزيمة . ولم نجرب بعد أن نرد القوة بالحق وبالمبدأ .

ما هو ذلك المبدأ العقائدى الذى يحتاجه الغرب منا لكى يستمع إلينا ويتحاور معنا ؟ أننا نستهين بعقله حينما نطرح عليه أن حل مشاكله سوف يأتى بمجرد إسلامه وتطبيقه للشريعة الإسلامية ؛ بل ونظلم أنفسنا حينما نظن أن الحلم بهذه الأسطورة سوف يكفى وحده لحل مشاكل العالم المادى الذى تحكمه قوانين الدنيا . بل نظلم إسلامنا الذى كان من أهم إسهاماته

للحضارة الإنسانية أن لا فصل بين الدنيا والآخرة ولا شئون الدين وشئون الدولة . وأن الحاكم هو الإمام والإمام هو الحاكم مثلما كان من قبله فرعون خليط من البشر والآله ومثلما طالب أفلاطون بأن يكون الملك حكيما أو الحكيم ملكاً .

فالتحدى الذى يواجهه الإسلام هو فى أن يتمكن من الحوار بما يجعله يعرف أسرار قوة الغرب المادية فيعيش نداً له . وكذلك بما يجعله يسمع رفض الغرب الاستماع لما قدمه من مساهمات الصحوات الإسلامية المتناثرة والفاشلة حتى الآن .

أين أخطأنا حينما صار الدين سلاحاً تدمر به اخواننا ؟ أين أخطأنا حينما نسينا اسهامات حضارتنا فى أن نجحت أكثر من غيرها فى محو الفرق بين العربى والأعجمى ألا بالتقوى ، فنمارس التمييز العنصرى القائم على العصبيات الاسرية والقبلية والإقليمية والمذهبية ؟ أين أخطأنا حينما كفر بعضنا البعض سواء بين المذاهب ، مثل الشيعة والسنة ، أو بين كل من أبناء المذهب الواحد والوطن والقبيلة والأسرة ؟

والآن ألا يجب علينا أن نبدأ بأنفسنا فنصلح ما بيننا من خلافات وصراعات لا تعود علينا ألا بالدمار المتبادل ؟ ألا يجب أن نبدأ بمصر بأن نطرح فى الضوء معتقداتنا المختلفة مهما كانت تسمياتها بما يجعلنا نلتف حول ما يمكننا الاتفاق عليه كأولوية تسبق غيرها ؟ هل الضرورة الملحة هى الاختلاف حول من الذى سوف يتحدث بإسم الدين ويكفر من

يخالفه أو الضرورة أن نقدم نموذجاً بديلا للحضارة الغربية التى ما زالت تمارس تمييزها العنصرى على الأقل ضد العالم الثالث وان كان لها الفضل فى محاولاتها اصلاح ذاتها من الداخل بالقضاء على العنصرية بها «ربما باستثناء حالتى إسرائيل وجنوب أفريقيا» فنبنى مجتمع الأخاء والتعاون بدلا من التقاتل والتناثر ونزيل التمييز بين العربى والأعجمى ألا بالتقوى ونحترم التقوى التى يمارسها كل تقى بغض النظر عن محتوى معتقداته الدينية؟ فما من أمة ألا وأنزل الله فيها نذيراً وكم من نبى قصه علينا وكم لم يقصصه دون أن يفرق بين أحد من رسله؟ فبأى منطق لا يمد المسلم المصرى يده للمسلم المصرى وان اختلف معه فى تفسير أو فهم؟ أو لا يمد يد المسلم المصرى النصرانى أو اليهودى المصرى؟ ولماذا لا يمد يدكل هؤلاء إلى غيرهم عبر الحدود الوطنية المصطنعة ليتآخى مع إخوانه من عالم المستضعفين بغض النظر عن محتوى عقيدته أو تسميتها ولكن بناء على تقواه وإسلام وجهه لله؟ لماذا لا نستمع إلى الهندوسى والبوذى وغيرهم ممن قد يكون الإيمان الذى فى قلوبهم قريباً لإيماننا رغم ما قد نختلف حوله من شعائر.

ان عالم المستضعفين فى الأرض فى حاجة إلى أن يعيد إكتشاف أن الآله الذى يختلفون حول تعريفه إنما هو إله واحد وأنهم يمدون يد الأخاء — لا يد الذل ولا يد التسول — لمن ما زالوا يتعالون عليهم عنصرياً ويكفرونهم دينياً. فتكون دعوتهم للسلام على أن تدعمها تطبيق السلام فيما بينها.

السلام المصرى فى خطر . ولكن الخطورة التى تهدده هى خطورة تهدد غيره على السواء. ولذلك فإن ممارسة مصر للسلام الداخلى يجب أن ترتبط وتتوازى مع ممارسة دورها السلامى الخارجى . فهذا دور ينتظرها فى السلام بين الأطراف العربية والإسلامية المتناحرة . ودور فى لبنان . ودور فى أفريقيا وآسيا وفوق هذا كله وقبله دورها من أجل الشعب الفلسطينى سواء الصامد أو المحبوس داخل الأراضى المحتلة أو الهارب أو المطرود منها . ودور مصر السلمى حتى الآن ما زال هو الأقرب إلى الواقع والذى يستطيع أن يسالم إسرائيل لابد أن يكون قادراً على الدعوة إلى السلم خارجها علاوة على داخلها .

ألا تستطيع مصر أن تقدم نموذجاً بالمجادلة بالتى هى أحسن : أليست مصر هى المخزن الكبير الذى يفرز أبرز مفكرى العالم العربى والإسلامى والآسيوى الافريقى ؟ أليست مصر اليوم هى الأقرب إلى الاستنارة والعلم مع إحتفاظها على مستوى السلوك اليومى بتراثها الدينى العريق فرعونياً كان أو كتابياً ؟ وأقرب إلى السعى نحو التكافل والعدالة الاجتماعية والشورى فى الأمر وكل ما فى الحضارة الإسلامية من مفاضل ؟

٧ - الشك والإيمان
طريق النفس للاطمئنان

أن موضوع المؤتمرات العلمية الإسلامية لهو بحق موضوع الساعة .
فالقضية المثارة اليوم حول علاقة العلم بالإسلام لهى تعبير عن اختصار موجة حضارية غيمت على العالم العربى والاسلامى منذ انكسار العالم الثالث الذى وصل إلى أوجه فى هزيمة يونيو ١٩٦٧ . فمنذ هذا الوقت والعالم الثالث الذى كاد يصبح قوة ذات إرادة مستقلة فى مواجهة العالم الغربى فى شمال الكرة الأرضية ينسحب إلى داخله محتضراً أو محاسباً لنفسه .
لقد تشرذم العالم الثالث وتفتت فيه الوحدات بين الاوطان بل وداخل كل وطن غالباً بإسم الاختلاف فى الثقافة واللغة أو الدين . وانتشرت الحروب بين دول العالم الثالث وفى داخلها على هيئة حروب أهلية أو ثورات أو أعمال ارهابية . وأغلبها مرة أخرى بإسم الدين . فقد طرح الدين نفسه على الساحة كمحاولة للاستجابة لحاجة الشعوب إلى عقيدة سماوية أو مبادىء روحية سامية لتلتف حولها فى مواجهة السيطرة الغربية الحضارية المعتمدة على القوة المادية ، الاقتصاد والسياسة والقوة المسلحة ، وبعد حقبة من التجارب والاجتهادات التى عادت ترجمتها فى أمثلة عديدة بين ثورة فى إيران قامت حاملة شعلة الإسلام رافضة لكل من شقى الحضارة الغربية ، الليبرالى والاشتراكى ، أو ثورات فوقية مثلما حدث فى باكستان ضياء الحق أو سودان النميرى أو استخدام الإسلام لترسيخ نظام قائم فعلا كما الحال فى أغلبية الأنظمة العربية سواء ملكية أم جمهورية .

إلا أنه سرعان ما تبين أن فى هذا التقاء فى المصالح بين تلك المحاولات المتشرذمة والسطحية لإعادة الصحوة الحضارية الإسلامية ومصالح كل من الصهيونية والولايات المتحدة والعالم الغربى والشمالى برمته . أنه حلف غير مكتوب ولا معلن ولكنه يعلن عن نفسه بنتائجه . فالأطراف المستفيدة من هذا الارتباط بين موجات العنف سواء المنظم أو غير المنظم ، باسم الدين ،هى بعينها تلك الأطراف التى تظهر إزاء بعضها الاستغلال أو حتى العداء لحد الحرب . فالصفوة النفطية العربية التى تتولى الدعوة إلى التمسك ببعض قشور الشريعة الإسلامية لترسخ سلطانها ، والجماعات الشعبية المتمردة عليها ترفع ذات الشعار لتبرر حقها فى التمرد على السلطان المفروض عليها ، وكلاهما يرسخ الانفصال والتشرذم الذى أصاب الدول العربية والاسلامية . وحرب العراق وايران مثال واضح على ذلك علاوة على الحرب الأهلية الدامية فى لبنان وتلتقى معها فى المصلحة الصهيونية التوسعية والمتحالفة مع الولايات المتحدة خاصة والغرب عامة بشقيه الليبرالى والاشتراكى فكل هؤلاء أصحاب مصلحة فى أن يستمر العالم الثالث عامة والعالم العربى والاسلامى خاصة متفككا متشرذما . وتكون المصلحة أفضل إذا ما تعاور التفكك إلى قتال ودمار متبادل . فالذى يبيعنا السلاح بأثمان باهظة هو ذاته الذى يشترى منا الوقود بثمن بخس . والعنصر البشرى الذى يموت بهذا السلاح هو نفسه العنصر الذى يريد الغرب أن يتخلص منه ولكننا علاوة على أعطائه ميزة بيعنا السلاح غاليا أجدنا عليه بميزة أن نوفر عليه أيضا الرجال فنقدم جنودنا فداءا لجنوده نستخدمهم ليقتل بعضنا البعض . فكم فلسطينى قتل بواسطة الاستعمار أو الصهيونية . وكم قتل بواسطة أخوان فى العروبة

والاسلام بل بواسطة فلسطينيين منهم ؟ وكم من عربي مسلم سوري قتل على يد أخيه ؟ وكم من مسلم عراقي وإيراني قتل بيد مسلمة ؟ والسلاح في كل الأحوال غربي بل وإسرائيلي.

إن مانحن بصدده اليوم هو حصيلة تجربة الحقبة الماضية في اتجاه استخدام شعار الإسلام كمخرج من مأزقنا في العالم الغربي والاسلامي وحصيلة التجربة أن ما تحقق حتى الان هو أن هذا الشعار أصبح مرتبطا بالقمع إذا كان رافعه سلطان والمصحوب بالعنف الموجه إلى الداخل (الفتنة الطائفية والحروب الاهلية) أو إلى الخارج الحروب بين الدول العربية أو الاسلامية إذا كان رافعه ثائرا على سلطان . والحصيلة أيضا سقوط أنظمة واهتزاز الباقي ، دون الاقتراب من نقطة التقاء واتحاد .

إننا إذا في حالة محاسبة للذات . ألم يكن هناك خطأ ما في كيفية طرحنا لشعار الاسلام ومحاولاتنا لتطبيقه ؟ وهل تكون اجاباتنا على هذا السؤال المعبر عن حالة اختصار ثقافي بين أن نرتد عن الشعار برمته أو أن نتمادى بالدفاع عنه والمحافظة عليه متجمدا ممنوعا . من التطور بما يسمح له بمواءمة العصر ؟ لابد من البحث عن جماع يحمينا من الوقوع في مخاطر التطرف أيا كان اتجاهه .

ومادمنا في مجال العلم والطب والطب النفسي بالتحديد فلنأخذ من هذا مثالا لما حدث في التطبيق . العلم نقيضه الايمان وليس الإسلام . فالعلم

بطبيعته يبدأ بالشك فى محاولة لا نهاية لها للوصول إلى اليقين . وهو يبدأ بالمظاهر المتفرقة فى محاولة لإيجاد القانون العام الذى يحكمها ويجمعها البداية فى طيلتها السعى إلى النهاية والحال فى الإيمان تحت فالإيمان يعتمد على قبول مسلمات مطلقة لا تقبل المناقشة أو تخضع للتشكيك والبحث العلمى . إنها بديهيات وراسخة فى الوجدان وتفرض نفسها على العقل . إلا أنها لهـذا السبب تحمل فى طياتها نقيا للشك الذى يؤرقها ويهددها . فالذى يفرط فى تأكيد إيمانه إنما يقوم بعملية نفسية دفاعية هدفها حماية نفسه من وابل الشك الذى يطرق أبواب وعيه فيصدها بالاستمرار فى تأكيد إيمانه. ومثلما يوحد هذا الايمان الدفاعى فهناك الشك الدفاعى . أن المتشكك الذى يؤكد شكه فى محاولة مستميته لتجنب ميله الداخلى للاستقرار إلى طمأنينة المؤمن الذى لا يؤرقه شك . المتطرف فى إيمانه مثل المتطرف فى شكه، كلاهما يحمى نفسه من أن وجهى العملة هما وجهيه نفسة. وأنه لكى يصح ويتفرد ويتكامل ويتوازن ويعود نفسا واحدة مطمئنة عليه أن يحل الصراع بين جانبيه المتشكك والمؤمن . عليه أن يجد جماع الاطروحة الذى يجمع بين اعترافه بما يعتريه من شكوك وحاجته العميقة لما يوفر له طمأنينة الإيمان .

لعل هذا الإنسان الصحيح المتفرد المتكامل المتوازن هو الذى يمكن أن نصفه من لوجهة الطبية النفسية بأنه المؤمن الحق . وليس من العسير أن نستشهد بالآيات والأحاديث التى تؤكد وسطية الإسلام واعتداله وسماحته. فنبى الإسلام (صلعم) ذاته إنما هو بشر مثلنا يوحى إليه . ولكننا سوف نكتفى فقط بهذه الإشارة تأكيدا لأن ما نسعى إليه ليس مجرد محاولة أخرى

لإستخدام الإسلام من أجـــل التعبير عن اجتهادات علمية وفكرية ، ومع ذلك فهى فى أطار لقاء إسلامى يبحث فى العلاقة بين الطب والإسلام . وعلى هذا فإن ماتقدمه يمكن أن يدرج ضمن الاجتهاد رغم مالا يتوفر للباحث من أرضية فقهية إسلامية تسمح له بادعاء هذا الحق على ذلك الأساس . ولكنه اجتهاد إذا ما أخذنا فى الاعتبار أن فى فريق المؤتمرين من يستطيعون الافادة والاستفادة بثقافاتهم الفقهية الاسلامية للالتقاء من المنطق والعلم فإذا كان التناقض الظاهرى بين الإيمان والعلم قد يجعل مثل هذا اللقاء عسيرا على الأقل فى البداية ، فإن مثل هذا التناقض لايوجد بين العلم والاسلام . فالاسلام يشمل العلم ويحتويه ولايتناقض معه . وعليه فمن حق المسلم أن يتخصص فى علمه ويجتهد من منطلقه دون خوف من وصاية من قبل أى تخصص آخر بما فى ذلك التخصص فى الفقه أو الشريعة .

أن مثل هذا التعاون فى الاجتهاد وبين العلماء من كافة التخصصات من موقع الندية دون وصاية كهنوتية غريبة على الاسلام غريبة فى أصلها هو الرد البناء على الاحتضار الذى نحن بصدده . والاحتضار والموت قد يكونا نقطة بداية لانهاية استعدادا لميلاد جديد .

لقد كانت حصيلة سعينا فى هذه الحقبة الماضية هى إصابة المسلمين بضرر وإساءة الاسلام . لابد من هذه المواجهة الصريحة مع النفس قبل أن نتمكن من وضع أقدامنا على بداية طريق الاصلاح .

لقد حذر بحق العالم الجليل الأستاذ الدكتور أحمد عكاشه(*) من مخاطر هذه المحاولات الزائفة لربط القرآن بالعلوم الطبية . أن فيها أضعاف تدريجي لقدسية القرآن ودسيسة على الدين وبدعة على الإسلام ، تماما كالتخطيط الاستراتيجي البعيد المدى للصهيونية والامبريالية لبث الجماعات المتطرفة ونشر التفرقة بين المسلمين ، وهو نفس ما حذر منه المفكر والفيلسوف المعاصر الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا(**) وكذلك حذر نا منه قبل ذلك السياسي الجرىء الدكتور فرج فودة(***) حينما نوه إلى وجود دوافع سياسية متضاربة وراء الشعارات الإسلامية . وإنها دوافع لا نبل فيها ولا دين . فالنتيجة المرئية في الواقع الحي هي خير اختبار لمدى صدق أية دعوة . والنتيجة التي نراها في عالمنا العربي الاسلامي المعاصر في مجملها سلبية . ولهذا فلا بد من محاسبة النفس . أي لا بد من الشك . سعيا نحو اليقين الحق ، ولا بد من العلم سعيا نحو الإيمان الحق . أن من قوانين الطبيعة أنه إذا تأرجح البندول في إتجاه فإن رد الفعل الطبيعي أن يعود بنفس القوة في الاتجاه المعاكس .

لابد من الاعتراف أن محاولاتنا على مدى السنوات الماضية للربط بين العلم والإسلام كانت أغلبها في إتجاه التطرف الذي جعل الرافعين لشعار الإسلام

(*) الأهرام ٢٥ / ٨ / ١٩٨٥ .

(**) في حديث لجريدة الأهالي بتاريخ ٨ / ٨٥ وسلسلة المقالات التي نشرت في الأهرام خلال يوليو وأغسطس ١٩٨٥ .

(***) في كتابه « قبل السقوط » .

يرهبون غيرهم برفع سلاح التكفير والجهاد ، فكانت النتيجة أن تبارى العلماء والمفكرون بانتهازية لركوب الموجة ولمجاملة ومنافقة المتطرفين والمحافظين على السواء . والنتيجة كانت خسارة للطرفين . فالفريق الأول حرم من اكتشافات العلم . ومع ذلك لم يتورع عن استيراد ثمراتها جاهزة على هيئة بضائع وأدوات وتكنولوجيا ، غربية وغريبة عليه . أما الفريق الثانى فقد وجد إنه يكافأ على حسب درجة نجاحه فى التزييف والتعلق لا على ما يعبر عنه من قدرات علمية وفكر حر . فصار قادة العلم وصناع الأبحاث ومروجو الثقافة ضحلاء . يكتفون بترديد الشعارات واقحام الآيات والأحاديث لتبرير اكتشافات العلم . وبهذا ساهموا فى تعميق التعتيم والتغميض الذى زود المرض فى قلوبنا وعقولنا بما كنا نكذب ونناافق .

وهنا لابد من وقفه قبل أن نتزلق فى الاتجاه المناقض والذى مؤداه العودة إلى فصل الدين عن العلم أو العقل أو الدنيا وهو كما أشرنا أمر غريب على الاسلام سواء كدين أو كحضارة وتراث ثقافى . والحجة المطروحة هنا ليست حجة مستودة على فقه أو سنة أو قرآن بقدر ماهى حجة مطروحة من منطلق علمى أو بالأصح طبى نفسى .

فالطب النفسى مهارة أى نعم تعتمد على العلم ، ولكنها فى النهاية مهارة هدفها مصاحبة النفس البشرية فى طريقها من التصارع بين النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة لتحقق النفس المطمئنة . إن هذه الرحلة فى أعماق

النفس هى التى ساهم فى تأسيسها علميا أطباء النفس ممن تخصصوا فى التحليل النفسى وصحيح أن بداية هذا التيار كان ، كغيره من المجالات العلمية ، غريبا عن الدين بل أحيانا معاديا له ، كما فى كتابات مؤسس هذه المدرسة العالم الكبير سيجمون فرويد ، إلا أن تطوره لم يستمر فى هذا الاتجاه . فقد نبه زميل لفرويد وأحد أول مساعديه العالم المتصوف كارل جوستاف يونج إلى أهمية دور الدين فى الحياة النفسية للانسان .. وما تهدف إلى تحقيقه هذه المهارة هو ذلك الحل الجذرى للصراع النفسى بما يحقق الطمأنينة للنفس .

أن المهارة سابقة على العلم . والعلم إذا نجح فى الارتقاء بمستوى المهارة فهو علم نافع . كما أنه اختبار نفعه يقع على عاتق الحصيلة لممارسته . وهنا فإن على الطب النفسى كمهارة أن يتواضع ليتعلم من المحاولات السابقة للعلم فى مجال حل الصراع النفسى وتحقيق الطمأنينة . فالطب الشعبى سابق على الطب الحديث ولم ينتظر العلم مؤجلا تحدى أن يعالج مرض . والطب النفسى من باب أولى كان له دور قبل أن يكون للطب النفسى كيان أو إسم أو أسس علمية فالانسان عرف المعاناة النفسية منذ أن عرف الوعى وما يحمله الوعى ضمنا من صراع نفسى حتمى . أنا موجود . فأنا نفى لما ينفى وجودى صراع مع عدمى . هذه المعاناة النفسية الوجودية أصيلة فى الانسان . وبالتالى فإن محاولات الانسان لعلاجها كانت مصاحبة لوجودها . إننا نسمى الطب السابق لعصر العلم طب شعبى . وعليه فنسلبه صفة العلمية ونقلل من مصداقيته : وإذا كان هناك ما يبرر ذلك على المستوى الطبى العضوى فإن الأمر يختلف فى حالة المستوى الطبى النفسى .

فمعاناة النفس لم تكن مرهونة بالاكتشافات العلمية الحديثة لعقاقير المطمئنة للنفس بل أن هذه العقاقير كانت لها بدائل ما زال الناس يتمسكون بها حتى اليوم رغم تحريمها قانونا أو دينا (مثل الكحول والقنب والأفيون وما شابه) . ولكن العلاج النفسي، أى العلاج بواسطة تأثير وعى أو سلوك على وعى أو سلوك آخر.دون وساطة كيمائية كان هو سلاح الطبيب الشعبي الاساسى حتى فى حالات الأمراض العضوية ، فما بال الأمر فى الأمراض النفسية .

الاختلاف فى حالة الأمراض النفسية أن ذلك العلاج النفسى الشعبى كان يعتمد أساسا على المعتقدات والمفاهيم السائدة ولذلك فإنه إرتبط إلى حد كبير بوظيفة كهنية دينية .

هنا فلابد أن نتحفظ على الاغراء أن ننزلق بالبندول فى الاتجاه المعاكس أى أن نفصل الطب النفسى عن الدين. فلا نزداد عماء بأن ننكر دور الطب النفسى الحديث ونلقى بالامراض النفسية فى سلة العصيان أو الكفر تاركين علاجه المبسط فى الموعظة والنصح أو الإرهاب بغية الهداية . كما لا ننكر ماللتراث الدينى من فعل فى محاولات اكتشاف أغوار النفس البشرية وأسرار معاناتها وطريق خلاصها. فالإجابة ليست مبسطة سواء فى هذا الاتجاه أو ذلك فلا نتجاهل انجازات علم حديث ولا نتجاهل تراثا أصيلا. وفى المقابل لا نتطرف فى إطلاقية منجزات العلم الحديث (فالعلم شك فى سبيل يقين) ولا فى اطلاقية عقائد ومفاهيم موروثة (فالايمان شك كامن) .

أن الوصول إلى النفس المطمئنة لا يأتى بنفي وجود النفس الأمارة بالسوء

أو النفس اللوامة . ولكن بالاعتراف بهما واستيعابهما . والاسلام لم ينف بشرية الانسان بدءا من نبيه ، ولكن دوم التأكيد عليها ووفر لها الشرعية . فالانسان من حقه من يشبع حاجياته الغريزية والدين يوفر له السبيل لأن يجمع بين ذلك الاشباع وبين الرضوخ للامر بالسوء وما يترتب عليه من لوم ، وما يترتب على هذا بالتالى من صراع .

أن المسئولية التى تقع على الطب النفسى تأتى من كونه دون بقية فروع الطب يجمع بين العلوم المادية والعلوم الانسانية . وهذه الاخيرة هى التى تمثل الوصل بين وظيفة الدين فى الماضى ووظيفته فى ظل العلم الحديث . أن المعاناة النفسية التى يتحملها الانسان تفرض على المعالج أن يرى فيها انعكاسات للمعاناة البشرية بكافة أبعادها . فالفرد لا يمكن فصله عن محيطه فى الزمان والمكان . ولذلك فإن الطب النفسى عليه أن يقوم بالمبادرة فى عبور هذه الفجوة بين الأصالة والتحديث ، وبين التراث الاسلامى والقيم الحضارية الغربية . ولا يمكن أن يتم ذلك إلا فى جو من حرية الفكر والمحاولة الجادة للتواصل بين حفظة التراث ومستوعب الحديث . ومن نعمة الله علينا أن تراثنا الدينى لا يسمح بالاحتراف الدينى على هيئة كهانه وسيطة بين العبد وربه . وتراثنا المصرى والعربى لا يجهل الحاكم الذى نندبه فى التعامل مع كافة الأوجه للمشاكل التى نواجهه كاهن أوخاضع لوصاية كهنية بل سياسى وحكيم أن أمكن ناهيك أن يعطى لنفسه حق الحكم باسم الآله وبالتالى ممارسة الطغيان وقتل الحرية التى تفرز الفكر الذى يمهد لتطور المجتمع وخروجه من جموده .

مرحى لاتكون هناك متاجرة بالدين . ولكن هل نمارس ديننا كطريق ونساهم فى تطوير تطبيقه وتفسيره .

٨ — السلاح المكدس ضد السلام المقدس

إن صناعة السلاح (وتتلوها الكيماويات) كلما أنتعشت كلما انفتحت شهيتها للاستزادة . فالعالم الثالث ينفق عوائد مواده الخام على تغذية حروب محلية تحقق عدة أهداف معا . أولا : تبقى صناعة السلاح منتعشة ومتحكمة بالتالى فى أسعار المواد الخام . ثانيا: تبقى العالم الثالث مفتتا متشرذما لا يقوى على توحيد جبهته فى مواجهة عالم الصناعة. ثالثا. تبقى الانظمة القوية عسكريا مستمرة النزيف بما يحافظ عليها داخليا ويمنعها من التوسع خارجيا . رابعاً : تبقى الانظمة القوية ماليا (أساسا الدول النفطية محدودة القوة) قوية ماليا ولكن فى عجز سياسى متزايد سواء داخليا أو خارجيا . (وبهذا تضمن غياب الوحدة) .

إن أى زعيم أو نظام يظن ان يستطيع وحـــده أو بمساندة السوفييت أو الامريكان أن يوحد شعوب المنطقة . وإذا كان البعض قد حلم بذلك يوما فإن نجاح مؤسسة صناعة السلاح فى شغلهم بحروب مستنزفة ومستمرة لا يخرج منها غالب أو مغلوب ، وأن طمأن الدول النفطية أنها تستطيع أن تأمن سيطرة تلك الدول القوية عسكريا ، إلا أن سرعان ما تبين أن شعوب تلك الدول النفطية هى التى تدفع الثمن (فاتورة السلاح). والتجارة مستمرة لأن الأنظمة التى تعيش على الوساطة فى تلك التجارة أدمنت الاعتماد عليها كمصدر لقوتها الاقتصادية ، وذلك بعد أن باتت تلك الانظمة تخشى من تمرد شعوبها عليها ، فقد قاطعت مصر لأنها انتهجت سياسه السلام مع إسرائيل بينما لم تقدم هذه الأنظمة خطة حرب ضد إسرائيل بل على العكس دعمت

الحروب الأخرى بدءا من الحرب الأهلية فى لبنان إلى حرب العراق وإيران وسكتت تماما بل نسقت مع إسرائيل .

الأنظمة الزائفة تنكشف أمام شعوبها . وصار واضحا أنها مستعدة لبذل العتاد والأرواح لأن يتقاتل أبناء الأمه الواحدة بينما يتخذون مواقف الفرجة إزاء الأعمال العسكرية والارهابية التى تقوم بها إسرائيل بينما تدعم النظم التى تمارس العدوان والارهاب (على المدنيين دون المسلحين من الاسرائيليين .

إن صناعة السلاح (سواء السوفييتى أو الغربى) لم تعد تكتفى بما تجنيه من عشرات الحروب التى تغذيها فى العالم الثالث . وانزعجت من سياسة مصر السلامية . ونجحت فى تجميد السلام المصرى الاسرائيلى وتصعيد الصراعات المحلية . ولم يكفيها هذا أيضا وتعمل جاهدة على أن يتم إستهلاك مخزون السلاح (سواء المكدس فى الصحراء أو المكدس فى الوادى) .

إن تهور بعض القادة لايبرر أن نقع فى مخطط امبراطورية السلاح بأن ننزلق إلى حروب تذهب ضحيتها الشعوب . ومعاقبة الانظمة أو الزعماء المتهورين لا يجب أن يجرنا إلى صراع دموى بين شعوبنا.وأن الفروق طفيفة بين الحكمة والجبن و بين التردد والتروى وبين الشجاعة والتهور . فعسى أن نتمكن من الحكم المعقول على الأمور والتصرف الأعقل .

إن الحزن العميق الذى يثقلنا والغضب المترتب عليه لما حدث لركاب الطائرة المصرية المختطفة يجب أن يولد فينا العزيمة المصحوبة بالحكمة والاستعداد للفعل الرادع المناسب بلا ضوضاء ويعيد إلينا أهمية دعم الصف الداخلى وتوحيد جبهته .

٩ ـ الطعنة فى قلب السلام

لعل أحساس بالمسئوليه لما أرتبطت من مواقف التأييد المتحمس لخطوات السلام مع إسرائيل الذى أتخذها الرئيس الراحل أنور السادات يحملى اليوم أرى بدأ من التعبير عن تطور هذا الموقف فى ضوء الاعتداء الصارخ الذى قامت به دولة إسرائيل ، لا على مقر القيادة الفلسطينية بتونس فحسب . ولا على سيادة تونس ، ولا على أمن الدول العربية كافة . ولكن على اتفاقية السلام ذاتها وعلى مصر الطرف الأول والأوحد فيها من الجانب العربى .

وإذا كان الموقف الذى تطالب به المعارضة وتتبناه الحكومة إلى حد ما هو أن يزداد السلام برودا على الصعيد الرسمى - بدءا من سحب السفير فعلا إلى المطالبة بإلغاء إتفاقية كامب ديفيد له مبرراته الموضوعية ، فإن هناك جانب آخر للموضوعية يجب ألا نغفله .

فإن العداوة الشرسة المشتركة التى تحملها كل من اسرائيـــل من جانب وسوريا وليبيا من جانب آخر للزعيم الفلسطينى الكبير ياسر عرفات والتيار الغالب الذى يمثله (فتح وغيرها) داخل أطار المنطقة يجب أن يجعلنا ننظر مرة أخرى إلى الهدف الحقيقى من وراء العدوان الاسرائيلى . فالخطوات المترابطة التى بدأها الرئيس مبارك واستجاب لها كل من الزعيم عرفات والملك حسين كانت تشكل إحراجا للقوى المعادية للسلام فى كل من إسرائيل والولايات المتحدة (والتى لا مفر لنا من أن نعتبرها عنده لحصيلة تفاعل أرادات القوى السياسية الداخلية لكل منهما) . ويضاف إلى العداوة

دوافع أخرى تجعل إسرائيل وسوريا وليبيا بل وإلى حد ما أغلب بقية الأنظمة العربية تقف صفا واحدا مع إسرائيل والولايات المتحدة ضد السلام الممثل فى السياسة المصرية والذى يكسب أنصارا على رأسهم منظمة التحرير الفلسطينية ذاتها .

فالسلام بأى شكل وعلى أى مستوى وبين أى أطراف يمثل خطرا حقيقيا على التحالف الثلاثى الخفى : الصهيونية التوسعية ، الامبريالية الأمريكية ، النفطمالية الانفتاحية العربية . فالسلام يحدمن أرباح تجار السلاح ، ويساهم فى رفع مستوى الوعى السياسى والمستوى الاقتصادى للشعوب العربية والاسلامية بما يهدد إنفراد كل صفوة فى الاستحواذ على قيمتى المال والسلطة على حساب جماهير كل إقليم تسيطر علية . ولما كانت الصفوات العربية مازالت (حتى فى الدول « التقدمية » مثل العراق وسوريا ناهيك عن الجزيرة العربية) تقوم على العنصرية الأسرية أو القبلية لا على الانتماء القومى أو الإسلامى الدولى ، فإن السلام يهدد امتيازاتها بدرجة أكبر . وليس يخاف على أحد سعادة هذه الصفوات العربية لنزيف كل من العراق وإيران (سواء خوفا من مد الوعى الإسلامى الدولى أو الوعى القومى العربى) ولا سعادتهم لما يجرى فى لبنان . بل يتعدى الأمر السعادة لينتقل إلى الدعم المادى للأطراف المتصارعة .

فالأنظمة القبلية اللاقومية اللادينية أعجز من أن تقدم الفكر الأيديولوجى المستنير الذى يلهب مشاعر الشعوب عبر الحدود . بل هى غير راغبة فى ذلك . ولهذا تستعيض عن استخدام المبادىء التى تجلب قيمة

الاحترام أو حتى الحركة السياسية التى تجلب السلطة ، باستخدام المال النفطى كمصدر لقوتها . وتعتقد أنها بالمال تستطيع شراء كل شيء . بما فى ذلك زعامة زائفة للأمة العربية أو الإسلامية الوهمية التى لا وجود فعلى لها الآن .

ولكن حتى المال بات واضحا أنه سلاح ذو حدين . وصار المال فى هذه البلاد معبرا للاعتمادية التامة على الولايات المتحدة والغرب وبنوكه وبالتالى على الصهيونية التوسعية . والفتات الذى تناله مصر من الولايات المتحدة هو بمثابة الامتداد الطبيعى لمثل هذه العقلية .

أننا فى انتظار المزايدات والإدانات لمصر والعودة إلى إلقاء اللوم على كامب ديفيد والسادات . ولكننا يجب أن ندرك أن هناك ، وسط هذه الشعوب ، بل فى صفوفها ، أصواتا عاقلة ومتزنة ومخلصة لعروبتها ودينها تعرف قدر قيمة مصر ولا تنتهز أية فرصة لتكريس الهجوم عليها وعزلها . فقد أيقن هؤلاء أن لا عروبة ولا إسلام بدون مصر . بقى أن تتيقن مصر من ذلك وإن ترفع رأسها شامخة فى كبرياء فوق الصغائر والصغار . وتتحمل مسئوليتها فى تقديم ما تملكه من قوة لقيادة هذه الأمة المفتته وهو سلاح الفكر الأيديولوجى والثقافى .

أن لمصر تراثا دينيا وعربيا قويا راسخا يجعلها لا تضطر إلى المغالاة لتأكيد هويتها دينيا أو قوميا . فلا مكان ولا وقت ولا ضرورة للتشنج الانفعالى أو التطرف . بل يجب التمسك بالعقل والحكمة . وإذا كان الضغط على الدولة من المعارضه فى اتجاه المزيد من التشليح فيما يتعلق بإسرائيل

والتدفئة فيما يتعلق بالأنظمة العربية فأننا يجب أن نتذكر أن هناك دوراً آخر للمعارضه السياسيه هو القيام بما قد يخرج الحكومه فى فعله ألا وهو إجادة استخدام سياسة العصا والجزرة مع الحصاد . فتدعم العناصر المؤيدة لمصر وسياستها الحكيمه المعتدلة عند كل الأطراف سواء صنفت عدوا أو صديقا . وتضرب بشدة وحسم العناصر المناهضة لمصر وسلامها وإسلامها وعروبتها فى كل مكان . فلا فرق لطرف على طرف إلا بالتقوى .

١٠ — الحرية والقمع والقمع المضاد

مما لا شك فيه أن مصر تعيش اليوم فترة حريات لم تعرفها منذ سنوات والله أعلم إلى متى تستمر . ولكن لا يسعنا إلا أن ندعو لذلك ونعمل من أجله قدر المستطاع .

والملفت للنظر هو ذلك الخوف من الحرية الذى طالما صاحب الإنسان حتى وهو يشكو من القمع ويطالب بالحرية . فالذى عاش مقهوراً وعانى من ذلك ولم يذق للحرية طعماً ، لا شك يخشى هذا الجديد المجهول . . يخشى ذات الحرية التى يطالب بها لما يرتبط بالحرية من مسئولية . أنه يخشى الحرية لأنه يخشى المسئولية .

ولهذا الخوف مظاهر عدة . منها أزاحة ثورة المقهور نحو القائد المحرر بدلا من الثورة على القائد القاهر ، ومنها دفع القائد المحرر فى اتجاه القهر . ألا يقال أن الذى جعل فرعون يتفرعن أنه لم يجد من يرده ، بل يقال إننا إذا لم نجد فرعون صنعناه ؟

لقد شاهدنا ذلك على المستوى السياسى حينما كان يمثل عبد الناصر تيار الحرية وسط زملائه «الأحرار» حتى صنعنا منه فرعونا ثم لفظناه . وشاهدناه حينما لفظنا محمد نجيب وقتلنا السادات .

ولعل الذى يرجى ، وقوع الرئيس الحالى مبارك بارك الله فيه ، تحت

نفس الضغوط ، سواء ضغط الثورة عليه أو محاولة أن نصنع منه فرعونا ؛ أنه يملك من الصفات الشخصية الحميدة ما يجعله يقاوم هذا الضغط فى أى من الاتجاهين . فهو يسعى أن يجمع بين الحزم وسعة الصدر .

ولكن الذى يبعث على القلق هو ذلك الخوف من الحرية الذى أصبح متفشيا لا فقط بين دعاة القمع ، ولا من المقهورين الذين لم يعرفوا طعم الحرية ، ولكنه كالوباء ، تمل الكثير ممن يعرفون معنى الحرية . فهم أيضاً صاروا من الخائفين ، على الأقل لإنكماش حجمهم ونفوذهم . فالمثقفون اليوم ، والأحرار منهم بالذات ، يزدادون أنكماشا وخوفا . وكثير منهم يؤثر السلامة بأن يركب الموجة ، سواء كانت موجة القمع أو القمع المضاد . وهم بهذا غافلون أنهم فى كلتا الحالتين أول من سيكونون أكباش الفداء . ولعل فى ما حدث للمثقفين والأحرار فى إيران عبرة . فهم الذين دفعوا الثمن غاليا فى نظام القمع الملكى . وهم الذين يدفعون الثمن مرة أخرى اليوم فى نظام القمع المضاد الجمهورى .

وهنا يجدر بنا أن نسوق بعض الأمثلة لهذه الظاهرة الاجتماعية فى مصر اليوم . والتى لا نستطيع أن نبررها بأن هناك حاكما قامعا متسلطا فهى ليست إلا مظاهر مخاوفنا نحن من الحرية .

فهذه صيحات تنادى بتشديد العقوبات . وقطع الرقاب والأيادى ، أحيانا باسم الإسلام ، الذى لم يكد يرى فى فجره ومجده مثل هذه النزعة السادية

من شهوة الدم والقسوة والقمع . بل كان الإسلام ممثلا فى رسوله الكريم ﷺ ، وخلفائه الراشدين بما فيهم « خامسهم » عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم جميعا . مثالا للرحمة وقمة الدعوة إلى الحرية والتحرر . ومع ذلك فلم ينج المسلمون من هذا الخوف من الحرية . فقتلوا الراشدين أو لفظوهم . ثم أخذوا بعد ذلك يرفعون رايتهم ويمارسون القهر والظلم متمسحين بقميصهم وباسم الإسلام الحنيف .

صيحات توجه ضد أى كبش نفتديه حتى يتعامى كل من القاهر والمقهور عن حقيقة خوفه من الحرية . وتوجه تارة ضد مخالف للقانون لا ينتمى إلى « مافيا » تحميه ، أو توجه إلى من يدعو للرأفة به . تارة إلى منهم منفرد ضبط وحده دون العشرات أو المئات أو الآلاف من أمثاله . وسرعان ما نكتشف أنه ليس إلا فردا وسط ظاهرة متفشية . وإننا حتى لو بترناه بترا فإن الظاهرة موجودة كما هى . بل ربما زادت .

نراها فى سلسلة الحملات القمعية التى بدأت وإن لم تكتمل والحمد لله ، على نفر من المتهمين بالفساد أو السرقة أو الاغتصاب أو التهريب وما إلى ذلك . وهللنا وصفقنا وطالبنا بالبتر والقمع . ويا ليتنا نعلم أنه لو تحقق مطلبنا لصرنا جميعا ضحاياه . فمن منا بلا خطيئة حتى نرجم الزانية بالحجر ؟ .

أننا لا ندعو بأى حال من الأحوال إلى التسيب أو إلغاء العقاب أو

التهاون مع الانحراف والفساد . ولكن فقط ننبه أن تلك الدعاوى المبنية على الخوف من الحرية والتى تجد التأييد والتصفيق حتى من هؤلاء المقهورين الخائفين من الحرية . . إنما هذه الدعاوى تمثل حلما غير مقدس بين القمع والقمع المضاد فى مواجهة التحرر الذى نخشاه . فلنواجه مخاوفنا وليكن جهادنا الأكبر هو الجهاد مع النفس ، حتى نحمل الأمانة ويصير آدم لله فى الأرض خليفة .

١١ — الخروج من معاناة الجوع والجشع

أن الحوار الحقيقي المطلوب ليس حول وجوب تطبيق الشريعة الاسلامية من عدمه أو كيفية هذا التطبيق . ولكن الحوار هو بين الدوافع المتعارضة التي تكمن من جانب وراء المتصارعين حول من منهم الذي سيكون الخليفة أو أمير المؤمنين ومن جانب آخر الجمهور العريض من المستضعفين في الأرض فهؤلاء يحلمون بالعدالة طالما لا تتاح الرفاهية للجميع ، ويشبعهم الحوار الصحي الحر بين المثقفين طالما لاتتاح للجميع أمكانية التعبير بالكلمة والفكرة .

أن الصفوة الاقتصادية اليوم تمتلك القدر الأكبر من القيمة المالية، وهي القيمة السائدة في عصرنا ، وهذا يجعلها الطرف الأقوى في مواجهة الصفوة السياسية . أما الصفوة الثقافية التي تمتلك قيمة الاحترام فتقع في المقام الثالث المثقفون يعتمدون بالضرورة على رضاء أصحاب المال والسلطة .

وإذا كانت المبادرة يجب أن تأتي من الطرف الذي يملك القوة، أي الصفوة فإن الميزة التي تملكها الصفوة الثقافية هي القدرة على الرؤية البعيدة والفهم الشامل . وفي مقدورها يجب أن توجهها إلى محاولة التوفيق بين الصفوة المالية والسياسية من جانب وبين الصفوة وجمهور المستضعفين في الأرض من جانب آخر . فالصفوة الثقافية مستضعفة وسط الصفوة الكبرى والأفضل لها في الأمد الطويل أن تتبنى قضايا المستضعفين في الإرض لأن تبرر للصفوة المالية والسياسية وجودها وعيوبها .

ولهذا فإن حوارها لا يجب أن يقتصر على دقائق الفقه والشريعة ولا على تفاصيل العلم الأكاديمى ولكن على الدين والعلم الذى ينفع الناس . ومنفعة الناس لن تأتى إلا بالعمل معهم ومن أجلهم . فالناس هم فى النهاية أولادنا وورثتنا . وجودنا فى هذه الدنيا موقوت واستحواذنا على قيم المال والسلطة زائل . والعبرة بما نعمله معا لنخفف المعاناة عن المستضعفين ولنبعث فيهم الأمل ، فتخف معاناتنا وتنتهى مخاوفنا وأطماعنا ونتجاوز ذواتنا لنذوب فى العمل الصالح والكدح فى طريق ملاقاة الله .

١٢ - حقوق الإنسان العربي ووحدة الوجدان

بمناسبة إحتفال العالم بيوم صدور الإعلان العالمى لحقوق الإنسان وإزماع المنظمة العربية لحقوق الإنسان بالاشتراك مع هيئات أخرى للاحتفال به بمقر جامعة الدول العربية يوم الخميس ١٢/١٢/١٩٨٥ ، وكذا جمعية أنصار حقوق الإنسان بالقاهرة فى نفس المكان يوم ١٥/١٢/٩٨٥ ؛ فلايجب أن يفوتنا أن نعلم الناس عن لقاء تم بعيدا عن العالم العربى فى مدينة سيراكوزا بصقلية بإيطاليا، وبدعوة من المعهد العالى الدولى للعلوم الجنائية الذى يرأسه الأستاذ المصرى الأصل والفذ للقانون الجنائى الدولى بجامعة دىبول بشيكاغو ، الدكتور شريف بسيونى وكان موضوعه العدالة الجنائية. التربية والاصلاح وحماية حقوق الإنسان فى العالم العربى .

وحضر هذا المؤتمر نخبة من رجال القانون وعمداء كليات الحقوق وأساتذة القانون الجنائى والشخصيات العامة المرموقة على مدى أسبوع (١ - ٧ ديسمبر ٩٨٥) ، أكثرهم من مصر وآخرون من سوريا والأردن والمملكة العربية السعودية وفلسطين المحتلة وتونس والمغرب والجزائر والسودان. وهو جمع لم يكن الحلم بعقده فى أى بلد عربى فى ظل هذه الصراعات الباردة والساخنة والتقاتل بيننا بينما نغفل العدو المشترك الحقيقى وهو التسلط الاستعمارى المجسد فى التوسع والصلف الصهيونى الذى حول إتفاقية السلام إلى مجرد عملية تخدير لمصر ومزيد من الهرب فى عالم الأمانى والأحلام والنوم

لأغلب الدول العربية . كلانا ـ مصر والعالم العربي ـ منسحب من التعامل مع الواقع معتقدين أن تجاهله من قبلنا أو مواجهته من قبل العرب هو حيلتنا الوحيدة لمواجهة تحدى التحرر من العجز والتفكك والاستسلام .

ومع ذلك ورغم اختلافات المواقف من إتفاقية السلام فقد تبلور هذا اللقاء بين أطراف تلك النخبة فى عدة بلاد عربية عن إتحاد الوجدان العربى. فالواقع المشترك الذى يجمعنا أكبر من الخلافات النظرية بيننا . والواقع المشترك هو أن هناك تحديا يجمعنا لمواجهة تلك السيطرة علينا من قبل قوى التسلط الاستعمارى الغربى والمجسد فى قوى الصلف والتوسع الصهيونى .

فها هو ذا شعب فلسطين فى الأرض المحتلة يعانى من انتهاك حقوقه الإنسانية بفضل وجوده تحت الاحتلال . فهو لا يأمل أن تكون هناك أى جدية فى إعادة الأراضى المحتلة أو القبول بالتفاوض مع أصحاب الشأن من أجل إيجاد حل سلمى . كما أنه من الواضح أن العرب فى حالة تفككهم الحالية التى وصلت إلى الحروب والحروب الأهلية أو النظم القمعية لن يمكنهم أن يتفقوا على مواجهة مشتركة . فالنظم الهشه (أى كل النظم العربية) تخشى وحدة الشعوب التى سوف تطيح بها عندئذ . ولذا تحرص على خلق هذه الفرقة بينهم بما جعله أمرا عسيرا أن يعقد مثل هذا اللقاء فى أى من الدول العربية .

ولهذا فقد تحمس كل المصريين والاردنيون لأن يكون اللقـــاء التالى فى عمان أو القاهرة .

إن هذا اللقاء الوجدانى لنخب القانونيين ورجال الأمن والمثقفين عامة من ذوى العلم والنفوذ يمكن أن يفرز إلى حركة شعبية متزايدة الاتساع لتحقيق وحدة الشعوب ما دامت الحكومات تحيا على تكريس الانفصال .

فالشعب الفلسطينى فى الأراضى المحتلة منتهكة حقوقه بفضل وجوده تحت الاحتلال . وعلينا أن نواجه إسرائيل بأنها إذا رغبت السلم فلا بد من إنهاء حالة الاحتلال : أما بالضم التام للأراضى المحتلة الذى يمكن الفلسطينيين الصامدين داخل الأرض من أن يكونوا مواطنين كاملين متمتعين بكافة حقوق الإنسان التى تدعى إسرائيل أنها تعمل بها وتدافع عنها وهو أمر تخشاه إسرائيل . وأما أن تعيد الأرض المحتلة كاملة ، وهو احتمال بعيد فى ضوء الواقع الذى فرضته إسرائيل بالضم الفعلى مع الاحتفاظ بمزايا الاحتلال دون عيوب الضم :

فالأمل فى أن تتحد الحكومات العربية حول موقف مشترك تجاه الخصم المشترك أضعف من الواقع الموجود لوحدة الوجدان العربى على الصعيد الشعبى . فلا خلاف بيننا حول أهمية حماية حقوق الانسان . والقضايا المماثلة كثيرة .

ولعل مصر تجد دورها القيادى للأخذ بيد الدول والشعوب العربية بالقدر الذى تصير فيه قدوة بممارستها لحماية حقوق الإنسان وإزدهار الحرية مما يجعل المشاركة الشعبية إذا تحررت من الاعتماد على حكامها أو الخضوع لها يمكن أن تفرض وحدة الموقف والهدف بل وحدة الصف . وآن الأوان أن تبادر المؤسسات العلمية والثقافية المصرية بعقد مثل هذه اللقاءات فى مصر.

١٣ - قبل أن تجمع التبرعات

هذا النداء لأن يساهم الجمهور فى دفع ديون مصر. ترى ماوقعه على الناس؟ لا شك أن هدفه نبيل: أن يشارك الجمهور فى حل مشاكله بمبادرات ذاتية دون أنتظار منقذ من السماء (أى الدولة). فهو نداء صحى وصحيح. ولكن النداء الصحيح إذا جاء فى غير وقته أو إذا لم يسبقه مؤثرات تؤكد أنه نداء صادق ناهيك عن التهيئة له فقد يكون وقعه سلبى.

أنه نداء يشبه نداء الانضباط، ورفع اللافتات درءا للفتنة الطائفية، وإعدام المغتصبين وتجار المخدرات أنه أشبه بجمع من الناس أكتشفوا أن هناك لصوصا بينهم. ولكن أسود اللصوص تمكنوا بمبادرة ذكية أن يشيروا إلى غيرهم من أكباش اللصوص أو حتى الأبرياء فانضمت الجموع إلى حملة المطاردين لهؤلاء المظلومين وهكذا قبضنا على مهرب أو متقاض لحلو أو مختلس أو مغتصب واحد هنا أو هناك، بتردد شديد، خوفا من اتساع الدائرة وتفشى الفضائح. وهذا الأمر الذى يجعل الناس تفقد الثقة تماما فى الصفوة برمتها. ومعنى التردد أننا لسنا بجادين القضاء على كل مظاهر الفساد ناهيك عن جذوره. ومعناه الآخر أن الظاهر أكبر وأقوى من قدرتنا على التصدى لها. وإن الأسود أقوى من القانون وأن القوة فوق الحق، والقانون فوق العدل.

والنداء ينجح فى التخدير: وا راحتاه إننا وجدنا حلا. وإننا على وشك الخروج من المأزق. ولكن لأنه قد سبقه نداءات أخرى مشابهة بدون تغيير

يذكر (سواء فى الأشخاص أو المفكرين والكتاب أو فى المؤسسات) فذلك يجعل وقع النداء كالمخدر ، أنه يخفف الألم مؤقتا . ولكن المشكلة موجودة .

لقد كان السيد رئيس الوزراء كريما وحكيما حينما فتح الباب فى بنك للأفكار تستعين به الدولة . ولكن أليست الأفكار المطلوب ميلادها أكبر وأعمق من أن يولى بها فرد فى مكالمة تليفونية أو خطاب ؟ أن القضية من العمق بما يجعل الحاجة ماسة إلى تجنيد القيادات الفكرية والسياسية الجماهيرية للتحاور مع الصفوة ، (التى تشكل جبهة واحدة رغم خلافاتها الظاهرية) — إنها جبهة يجمعها أنها فى عزلة عن الجماهير وعن العمل المباشر معه .

الذى نحن فى حاجة إليه هو مواجهة مع أثرياء مصر ؛ هل تريدون المساهمة ، وليس بالتبرع ، ولا بالمن ، ولكن بإثبات أنكم قادرون على تنمية ثرواتكم من أجل تشغيل أكبر عدد من الناس وزيادة الإنتاج لا من أجل التخمة والاكتناز والتهريب استعدادا للهرب ، وما الذى تريدونه لتطمئنوا أن أموالكم لن تؤمم أو توضع تحت الحراسة ؟ أم تفضلون القارعة ؟

ثم مواجهة أخرى مع « فقراء » مصر ؛ هل أنتم مستعدون للمساهمة بالجهود الذاتية بالعمل المنظم والتعاون والتخطيط بل وبالتبرع لحل مشاكلكم ؟ هل أنتم مستعدون لإعادة النظر فى أساليب الإنفاق والحد من الاستهلاك والمساهمة فى المشاريع التعاونية والإنتاجية ؟

ولكن الأهم من كل هذا هو أن نسألهم بصراحة وبدون استفتاءات الـ ٩٩ ر ٩٩٪ موافقة . . ما رأيكم فى الصفوة ؟ وفى أولى الأمر ؟ أحزاب المعارضة تمثل شقا من الصفوة يتنافس مع شق آخر حول كرسى الحكم ولا تمثل القاعدة الجماهيرية . الجمهور لا متنفس له .

وبهذا الحد الأدنى من المشاركة يتولد الإحساس بالانتماء الذى يجعلنا فعلا نتكاتف ونساهم إيجابيا فى تسديد ديون مصر بل وبتقديم المعونة لإخواننا المستضعفين فى عالمنا العربى والإسلامى والأفريقى الآسيوى والثالث كله أما الإنطباع الحالى فهو أن الحكومة عاجزة عن الدفع وعاجزة عن جمع الضرائب من الأثرياء وأصبحت فى سلة واحدة مع الجمهور من المستضعفين فى الأرض وضحايا المستكبرين الذين يلعبون السياسة من وراء كواليس الاقتصاد لما يتمتع به من حصانة تجعله فوق مستوى الحساب وخارج منطقة نفوذ القانون .

الأهم من ذلك أن الجهد الذى سنبذله للاصلاح من أجل زيادة الانتماء والولاء والمشاركة والإنتاج هو الذى سوف يطمئن الدائنة أن مصر جادة فى صحوتها واستعدادها للانطلاق وإنه يجب أن يعمل لها حساب . وأنه من الأفضل لهم أن يستثمروا أموالهم فيها بدلا من تركها رهينة فى بنوك الغرب وتحت رحمة سعر عملته . فليس المهم أن نسدد بعض الديون فورا ولكن المهم أن نؤكد للدائنة أننا قادرون على الإنتاج . وفى هذه الحالة فلا يتعجلون التسديد بل قد يقدمون المزيد .

١٤ — المواطن المدين يسدد الديون

المواطن الفقير الشريف أول من يصحو ضميره استجابة للنداء الوطنى بأن يساهم الجميع فى تسديد ديون مصر . ثم يضع اليد القصيرة فى الجيب فلا يجد إلا إيصالات ديونه الشخصية . ويلتفت إلى الديانة ليجد منهم من سارع بدفع بضعة مئات من الآلاف متبرعا ليسكت الدوامة . فيزداد خجلا والخجل مؤلم . فيتوقف ويسأل عن قيمة هذه الآلاف بالنسبة لثروة صاحبنا المعلنة . وبناء على ذلك يقدر أن ما يجب أن يدفعه يساوى نكلة . أو ربما يجد أن عليه أن يتلقى معونة . وخاصة إذا ذكر نفسه بأن صاحب هذه الملايين والبلايين حصل عليها بالجهد القليل فى العمل الوسيطى أو الفهلوى المتصل بهذه الديون التى جاءت أصلا لتنمية مصر كلها ولكن لم تنمى إلا هؤلاء . ويزداد حسرة حينما يتذكر أن صاحبنا رغم هذا كريم وشريف نسبيا فهناك غيره سرقوا ملايينهم «عينى عينك» من أموال الشعب وهربوا بها خارج البلاد أيضاً «عينى عينك» أحيانا رغم الحكم والإدانة والأمر بالحبس ، واستثمروها وسمنوها . هؤلاء الذين استفادوا من استدانة مصر أو سرقوا السلفة صراحة لا يسددون ديونهم بل دحلوها لحساب شعب مصر واضافوا إلى التهليب تهريبا ، وبعضهم وصلت به البجاحة لأن يسعى لشراء طريقه إلى ذات المقاعد التى هرب منها تفضيلا للمال على السلطة ، لما قد أيقنه من أهمية السلطة لحماية المال وخاصة المسروق منه . فالسلطة لم تعد وسيلة للخدمة العامة . ولكن وسيلة للإثراء أو على الأقل حماية الثراء .

عندئذ يقول المواطن الفقير : لن أدفع نكلة . ثم يتذكر بلاده المسكينة وقد هجرها من حلبها وتخلى عنها من أغنى منها . ويتيقن أنه لها وإنها له . فيستعيد الرغبة فى أن يدفع الديون . ويعصر فكره بعد ما لم يجد فى عصارة جيبه ما يقدمه . فيبحث فى أسباب الاستدانة . وكيف ذهبت الديون لتلبية حاجات استهلاكية والإسراف فى اليوم الأبيض دون حسبان اليوم الأسود الذى أضحى قريبا .

إن النقود السائلة التى تجمع اليوم لسداد الديون تذهب فى إناء مثقوب كلما أضفنا إلى الإناء زاد محتواه فزاد الضغط على الثقب فاتسع . وتستمر الديون وتتضاعف . إذ أسبابها باقية والاستهلاك يستمر . ناهيك عن التبذير والفاقد والمفقود بل والمسروق .

ويتوقف المواطن الفقير ويصرخ أن أمسكوا باللصوص . ويضيع صريخه وسط الضجيج . ثم يراضونه بتقديم لص صغير من هنا أو هناك . ويمنونه بتطبيق الشريعة وقطع الأيادى والسهر فى ركاب الملوك ولصوص البلاد لتتوقف السرقات الصغيرة وتبقى السرقة الكبيرة ، سرقة الدولة بأكملها بدءا من اسمها فتسمى « مملوكة » ، ولكن تحذف الواو خجلا (وأحيانا لزيادة التمويه تسمى جمهورية أوجماهيرية) وتوصف بأنها « غربية » ، ولكن تحذف النقطة من فوق الغين أيضا للتمويه ، ثم تتم بتوقيع المالك اللص ويكون الختم ، للحماية باسم الواحد الذى يخشى أن يختلف عليه أحد حتى ولو كان ختما زائفا ومغشوشا .

اللص الكبير شريف . فإنه يملك أن يؤجر شرفاء يحتمى فى شرفهم بمثلما

يحتمون فى ماله . وهم يتعامون بحكم الحاجة عن مصدر أجرهم . وينسون أن المال الحرام لا يمكن أن يكون إنفاقه حلالا . أنهم يتقاضون أجرا يظنونه حلالا طالما يتجاهلون مصدره . ولكى لا تؤرقهم ضمائرهم يزدادون عمى بما كانوا يكسبون . ويتمادون فى الدفاع عن اللص الكبير ومديحه حتى لو سبوا ذويهم . مسكينة مصر . أبناؤها يزدرونها أرضاء للحاقدين عليها .

يسكت الفقير الشريف . فأبواب الرزق تغلق فى وجهه والعصابة تصدر له « شرفاء » مثله يضيقون الحلقة حوله ويكادون يدينونه . ولو احتاج الأمر « لأالصقوه » أو حتى « انتحروه » يسكت بعد أن أوشك أن يكتفى بالهمس : على الأقل أوقفوا التبذير . فيضرب فيقول : إذا فى شدوا الاستهلاك فيضربه حتى لا يجد أمامه إلا أن يقول : آمنت . ان أشير فى إنجاهكم . ولكن لا تدفعونى لأن أضحى معكم بكبش فداء . دعونى أصلح نفسى . دعونى أكون ولن أدعو أو أعظ ناهيك عن الاثارة أو التنظيم أو التنظير دعونى أكف عن الاستهلاك وأبدأ فى الانتاج . فهذا هو مفتاح سداد الديون . الدائنة لا يمانعون فى السلف . بل يسعون إليه . فأموالهم كثيرة وبضائعهم وفيرة ويريدون فى جيوبنا أمو لا نستهلك بها منتجاتهم . وإلا وقفت صناعاتهم وتجاراتهم . إنهم يريدون أن تكون لدينا نقود سائلة . إنهم لا يريدون منا أن نجمعها لكى نسددهم . ليس بعد . فيضلون أن نتمكن من توفير المزيد منها بواسطة إنتاجية محدودة من جانبنا لا تنافس بضائعهم ولكن تسمح لنا بدرجة من الثراء بما يمكننا من الشراء .

دعونى إذا أعمل وانتج . دعونى أتوقف عن الاشتهلاك السفيه . دعونى أمتنع عن كل ما هو رفاهية . ناهيك عن كل ما هو ضار . دعونى أتوقف

عن التبغ والخمر قبل أن تثيروا الضوضاء حول قلة من المساكين المدمنين لمثل هذه من السموم. فهذه سموم فتاكة . بل دعونى أتوقف عن السكر الذى يضر أكثر مما يغذى وعن اللحوم والدسم كذلك، دعونى أتوقف عن المياه الغازية بل عن اللذات الفمية غير الضرورية للتغذية ، دعونى لرغيف الخبز ومشتقات الفول والعدس ومياه النيل النقية بلا مخلفات سامة من مصانعكم أو مجاريكم .

فإذا فعلت استغنيت عن الديون ، ووفرت من النقود ما يجعلنى اشترى من التجار والصناع فى الغرب ما هو ضرورى فقط وبالأسعار التى أحددها فأعطيهم ما يحتاجون مقابل أن آخذ ما أريد . لا أعطيهم فوق ما يحتاجون ولا آخذ منهم ما يفرضون على دون أن تكون لدى حاجة له .

دعونى أسدد الديون . هل تسمعون ؟

١٥ — التعليم الجامعى من أجل المجتمع

على أثر قرار قضائى يمنع الاستثناءات فى القبول ويحد من عملية التحويل بين الجامعات أثيرت قضية الاصلاح فى التعليم الجامعى . فلا شك أن هذه الحلول الجزئية لبعض التفاصيل فى التطبيق تمثل محاولات متناثرة لإصلاح عيوب جزئية ولكن دون أن يتعرض الاطار العام لأهداف التعليم الجامعى للمساءلة حول أهدافه ومدى جدواه . فالاطار العام للتعليم الجامعى لم يتغير على مدى عشرات السنين السابقة . وما زال الأساس الذى يقوم عليه التعليم الجامعى متجمداً كما هو اللهم إن كان استمراره هكذا بدون تطوير جذرى فى مجتمع محلى وعالمى سريع التطور يمثل تدهوراً نسبيا خطيراً يبرر الوصول بالتساؤل إلى مداه . (ولعل الاستثناء الوحيد لمحاولة جادة لإجراء إصلاح جذرى هو تجربة جامعة قناة السويس التى لا تؤخذ بالجدية التى تستحقها) مع الأسف . إن مثل هذا التجاهل مثل تجاهل الارتفاع العالمى فى الأسعار مع استمرار الإصرار على المحافظة على تثبيتها بالدعم والقوانين مع تثبيت الأجور إلى أن نفاجأ بالصدام مع الواقع ونضطر إلى التغيير بدلا من أن نختاره ونخطط له . إن مثل هذا التجاهل سوف يفرض علينا بدوره أسئلة جذرية قد تجعل البعض منا يتطرف فى الحلول كأن نغلق الجامعات لمدة سنوات (وهو إقتراح من طرفى اليمين واليسار على السواء) أو كأن تتحول الجامعة عمليا ، كما هو حادث الآن ، إلى مجرد إمتداد للتعليم الثانوى دون مزاياه (مثل الثقافة العامة) وبعيوب مضاعفة وهى تخريج أشباه متخصصين بلا إحساس بالمواطنة أو الإنتماء . فالمواجهة الصريحة لقيمة الشهادة الجامعية تتطلب أن نعترف بأن الشهادة الجامعية الأولى (البكالوريوس) أو (الليسانس) لم تعد

كافية لتأهيل صاحبها لعمل منتج . والشاهد على ذلك هو ما نراه من إنخفاض تقدير المجتمع لها ، سواء كان المجتمع المحلى الذى يفضل صاحب الحرفة والخبرة أو التعليم الأجنبى أو المجتمع العربى الذى لم يعد يستعين إلا بأصحاب الخبرة والشهادات الأجنبية (على الأقل فى المجال الطبى الذى استطيع أن أشهد عليه) إن المجتمع العالمى إذا تنازل وسمح لطبيب حديث بالعمل فيكون ذلك فى مجال العمل اليدوى البسيط الذى لا علاقة له بتخصصه ،

ولكن هناك شاهد آخر لا يمكن تجاهل شهادتهم وهم الجامعيون أنفسهم سواء الأساتذة أو الطلبة . الأساتذة أما منهم من لا يزال يؤمن برسالته فيستمر مؤذناً فى مالطة ، أو منهم من قبل الواقع وصار يمارس وظيفته كمجرد سلم للصعود الاقتصادى (إعارات، بيع الكتب والمذكرات، الدروس الخصوصية وغير ذلك ..) وطلاب الدراسات العليا يتسابقون نحو منابع المال النفطى باسم جمع المادة العلمية فيجمعون المادة وينسون العلم . والطلاب أصبحوا يطالبون بالحد الأدنى من العلم وتيسيره فيعتمدون على حفظ المعلومات المركزة على هيئة مذكرات رديئة فينخفض مستوهم بما يفرض على إدارات الجامعات أن تخفض من مستوى التصحيح حتى لا يصير الرسوب هو القاعدة والنجاح هو الاستثناء ولكن الاصلاحات الجزئية الترقيعية تستمر بل تجد الثناء والتشجيع أو على أسوأ الفروض تجد السكوت كعلامة رضا أو عجز عن المواجهة فهنا محاولة لفرض الحضور على الطلاب (دون النظر فى دوافعهم للغياب فى الوقت الذى نجدهم يدفعون من جيوبهم لحضور الدروس الخصوصية بما فى ذلك شراء الجثث للتشريح وتأجير

المرضى لتعليم الطب بعبارة أخرى تفضيلهم للدراسة بالنفقات فى كليات خاصة سرية .

إن غياب الرؤية جعل بعض إدارات الجامعات تتحول إلى مجرد إدوات قمع تتصيد اخطاء صغيرة هنا وهناك وتحارب أى فكر مستنير (بالتستر وراء المخالفات الإدارية الشكلية القانونية بما جعلها تشبه محاكم تفتيش العصور الوسطى فى أوروبا) . ومادام رب البيت ، أى الجامعة بالدف ضاربا فكيف نلوم الجماعات المتطرفة على ما تفعله ؟ بل لعل هذه الجامعات المسماة بالمتطرفة تمتاز على التيار المقابل لها ، وهو التيار المحافظ (وهى تسمية مخففه للجمود والتخلف والرجعية) والمرتبط بمثله فى السلطة ، إنها تعكس خط القواعد الجماهيرية على النفاق السائد الذى يبيح لمن يملك السلطة أن يكون المتحدث الرسمى باسم الدين فيستخدم الدين للقمع والقهر ولترسيخ الظلم والتخلف (والأمثلة المجتمعات القريبة منا مثل إيران والسودان ولبنان وغيرها تستحق أن تدرس ويستفاد منها . ولعلها بهذا قد تضيف إلى التيار المنادى بإعادة النظر الجذرية والبحث عن رؤية بديلة ينبنى على أساسها الإصلاح الجذرى المطلوب . والخيار أمامنا بين أن نحاول إجادة الاستماع إلى ما وراء - السخط من منطق وقراءة ما بين السطور والأخذ بالمبادرة فى سبيل الإصلاح الجزرى وبين أن نتجاهل وندين السخط بتسميته تطرفا أو تعصبا أو عمالة لقوة خارجية (وهى إتهامات قد يكون لها أساس من الصحة فى بعض الحالات ولكنها لا تكفى لتفسير الظاهرة) :

وإذا كنا هنا لم نتطوع بطرح رؤية بديلة ونكتفى بطرح تساؤلات، فإن

ذلك إعتراف بأن مثل هذه الرؤية يجب أن تنبع من القواعد وبناء على حوار جاد وصريح بدلا من أن تفرض هذه الرؤية من القمة بواسطة سن القوانين وتنفيذها (وهو امر وارد لدرء خطر الانفجار بتعجيل التطور بقوة السلطه القائدة ، أى إنه وارد أن تطور السلطة من سلطة محايدة كالحكم فى لعبة كرة القدم إلى سلطة ثورية قائد كالمدرب لفريق الكرة إن لم تنزلق فى إتجاه السلطة القامعة بلا هدف أو رؤية) .

ومن هذه التساؤلات : ما هى قيمة مجانية التعليم الجامعى بينما يعلم أن هناك داخل كل جامعة أخرى سرية بالاجر لا تحصل الدولة منها على نصيبها الشرعى بل ولا الضرائب ؟ ما جدوى قبول وتخريج الآف بشهادات دون وجود فرص عمل تتناسب مع مؤهلاتهم ؟ ما هو دور الجامعة فى تطوير المجتمع ودراسة مشاكله والمساهمة فى حلها ؟ إلى متى تستمر الجامعة مصدر تصدير للخبرات والمؤهلات العليا إلى الدول الأخرى دون عائد للدولة أو للجامعة أو للاساتذة والخريجين والطلاب الذين صمدوا وقاوموا إغراء المال النفطى ؟ إلى متى يساوى الذى استسهل وهاجر وعاد بأقدميته ورأسماليته المضاعفة بينما إخوانه فى ضنك ؟ .

لماذا لا تحصل الجامعة حقها من القادرين – سواء الإفراد لا أو الدول المستفيدين منها لتأخذ من الثرى وتعطى للفقير كما يحدث حتى فى الجامعات الخاصة فى الدول الرأسمالية ؟ متى تلحق الجامعة كمؤسسة تخدم المجتمع بالجيش الذى ساهم فى البناء مثلما ساهم فى القتال وتحول التدريس بها والخدمة العامة المطلوبة من خريجيها إلى جيش مدنى يبنى بسواعدة ؟ كيف تساهم الجامعة

فى تخريج المواطن المثقف ـ لا المتخصص المحدود الأفق ـ الذى يتحمل مسئولية بناء مجتمعه وصنع الرؤية المستقبلية التى فى ضوئها يمكن أن تكون للاصلاحات ـ التفصيلية مكانه ؟

هذه مجرد بعض التساؤلات . والإجابات المحتملة كثيرة وباب المناقشة والحوار والمقترحات هو أفضل سبيل للوصول إلى الرؤية المطلوبة . فهل تفتح الصحف صفحات الرأى بها فترة لمواجهة هذه المشكلة الحيوية ؟ .

١٦ ـ هاشم فؤاد الثالث و « مفيش حاجة »

أثار الأستاذ الدكتور هاشم فؤاد عميد كلية طب جامعة القاهرة من الجدل حوله كما لم يثيره عميد من قبل . فرغم كل ما قيل عنه بما يصوره كدكتاتور بوليسي قامع فقد نجح في أن ينتخب بأغلبية ساحقة للمرة الثالثة كعميد لهذه الكلية العريقة . المسألة تستحق وقفة وتأمل . هل أن به من المزايا وراء تلك العيوب التي ألصقت به ما لا نقدرها ؟ أم هل بنا في المجتمع من القصور ما يجعلنا نختار قياداتنا بهذه الصفات التي ننتقدها فيهم ؟ إننا لا نستطيع أن نعتذر بأننا حضارة فراعنة لا ترضى بأقل من إنصاف الآلهة لتتولى أمورنا. ولكن ألسنا أيضا حضارة أثبتت إنها عند اللحظات الحرجة تستطيع أن تحطم إنصاف الآلهة ولا تشرك بغير الواحد الأحد أحدا ؟ بل نجحنا في أن نطوع فراعنتنا بأن يكرزوا معبرين عن إرادة الشعب متحدين طبقة الكهنة ؟ أليست حضارتنا التي أنجبت أو أثرت في توحيد أخناتون وإبراهيم وموسى وعيسى و حفظت وحافظت على تراث محمد أسوة بتراثهم عليهم السلام ؟ قد يقال إنها فورات أو ومضات سرعان ما تنتهي وتعود ثقافة الاستعباد والفرعنة النصف آلهية . فنختار الفرعون جاهزا أو نصنعه إذا لم يكن هكذا . لقد فعلناها في حياتنا في فاروق الملك ومن تلوه من رؤساء تشفشنا بهم أحيانا لدرجة القتل . (وندعو أن يحمى الله الرئيس الحالي من أن يجرفه ذلك التيار « المفرعن » حتى لمن لم يطلب « الفرعنة » بداية أو يسعى إليها) .

العميد الهاشمي ليس حالة فردية ولكنه حالة بارزة فهو ليس إلا نمط

لا مع لظاهرة تمم المناخ الحضارى لا المحلى فقط ولكن العالمى أيضا. فقلاع الديمقراطية ذاتها أختارت طواعية أمثال تاتشر وريجان وسبق أن ألهت لينين وماو وغيرهم وفرضت الفرعنة لحد القتل على أنديرا غاندى (ومن حسن حظ الهند ان أبنها وخليفتها . فى الهند لا يطلب « الفرعنة » ولكن يتعامل معها كالقدر الذى نزل عليه) . ولعل فى الصين الحديثه استثناء فى إننا نرى التحول فيها يتجه نحو تراجع الفراعنة على هيئة الاستقالة الجماعية لعدد لا بأس به من القيادات الحاكمة القديمة ليفسحوا المكان للجديد .

إننا نعيش فى عصر نتأرجح فيه بين الافراط فى الفرعنة والمحاولات المتشرذمة للخروج منها . أننا فى عصر الحيرة نلجأ للجمود خوفا من مواجهة الغموض الذى يسبق الإبداع الخلاق. نتأرجح فى التطرف فى التدين والتطرف فى الانحلال وفى الأغلب نجمع بينهما فى تناقض انفصامى على طريقة هذه نقره وهذه نقرة » . أننا نفتقد الآلاف أو الجماع الذى يجمع بين الأطروحة والاطروحة المضادة لها . ونفتقد التفرد فى شخوصنا الذى يجعلنا نفعل ما نقول ونقول بما نؤمن .

ولهذا فأننا نستطيع أن نطمئن أنفسنا بأن الظاهرة الفرعونية ليست الأمن علامات الاحتضار لحضارة تموت ليولد من بعدها الجديد . وبهذه الطمأنة قد نتكاسل عن تحمل مسئولياتنا فى البحث المبدع عن ذلك الجديد . ولكن الركود والجمود والخوف من المبادرة مصيره الإنفجار الذى يفرض الجديد

فرضا . ماذا حدث فى إيران ؟ وماذا يكاد يحدث فى السودان ؟ وماذا لابد وأن يحدث فى السعودية وغيرها من القلاع البادية الاستقرار الخافية للغليان وراء الجمود الظاهرى ؟

ألا تقع المسئولية على مصر لتبادر وتقدم الجديد قبل أن يفرض نفسه بعد السقوط ؟ الأنظمة العربية تحافظ على استقرارها بأن تحارب أعداءاً وهميين وأغلبها يكتفى بإدعاء محاربته . بينما يمارس عملا الاستسلام التام . فهى كلها مرتمية فى أحضان القوى العظمى وفى عجزها عن ضرب الحمار فهى تكتفى « بالتشطر على البردعة » ومصر لم تعدلها بردعة « تتشطر » عليها ولذلك فلم يبق أمامها إلا أن تعيد النظر بداخلها وتستعد لضرب الحمار .

لقد سئمت مصر الفرعنة . وباتت تنتظر فرعونا يرفض الفرعنة أو مذكرا يحذره من مخاطرها . ومع ذلك فالفرعنة المحتضرة تولد الخوف الذى يصاحب موت القديم ليولد الجديد . ومصر المحبة للاستقرار والنظام والسلام تؤثر السلامة فتبحث فى محاولة أخيرة عن فرعون يريحها من عناء البحث فى المجهول الغامض عن الجديد .

لعل الجانب الصحى فى الظاهرة الهاشمية هى أنها تمثل التمسك بالحياة وإسعاف المريض حتى وإن كان يحتضر . فإذا لم يكن من الموت بد فمن السخف ، أن نموت نياما . والحركة مهما كانت عشوائية وغير هادفة أفضل من البلادة أو ما سماها الدكتور هاشم ظاهرة الـ « مفيش حاجة » أى التبلد واللامبادرة التى تحبطه أينما ذهب محاولا بعث الحياة فى الجثة المحتضرة .

لقد حذر وصاحب تحذيره بالدعوات والأمانى الطيبة من مخاطر تلك الظاهرة الزميل الدكتور يحيى الرخاوى أستاذ الأمراض النفسية بالقصر العينى فى كتابه الطريف « أسمار .. و .. أفـكار حول قصر العينى »(١٩٨٢) والذى مازالت تساؤلاته تنطبق اليوم .

علينا أن نواجة الظاهرة الهاشمية التى ما هى إلا نمط يعكس مناخا حضارياً محلياً وعالمياً . فنعرف بمحاسنها ولـكن نحذر من مخاطرها .

إننا فى حاجة إلى التجديد . وليس كل تجديد (كما قيل عن جامعة قناة السويس) بدعة مستوردة مخالفة تراثنا الفرعونى القمعى . فمن تراثنا أيضاً أن نثور على الفراعنة أو نتحالف معهم ضد فرعنة الـكهنة .

ونحن والحمد لله حتى الآن لم ننجح بعد فى فرعنة الفرعون .. رغم المحاولات (فقد ألهمه الله تواضعاً واحتراماً للاختلاف جعله يتحمل ظهور الفراعنة الصغار فى كل موقع) . ولـكن المجتمع (المحلى والعالمى) يحلم بالحرية ويأمل فى التخلص من ظاهرة الفرعنة على كل مستوى .

لقد تطور الدكتور هاشم فؤاد باعترافه ونجاحه فى اكتساب ثقة زملائه والتشبع بالسلطة شبه المطلقة . وهذا يجعله أقدر على الاستمرار فى التطور بأن يولى وجهه هذه المرة نحو الجيل الجديد الذى لابد وأن يتحمل القيادة يوما . عليه أن يفعل بأسمهم فى الحاد ما فعله فيهم كبرادع . فيعيد التوازن . ويعيد توزيع السلطة لتأخذ القواعد نصيبها وتعفى القمم من عبء الفرعنة .

هل يستطيع الدكتور هاشم فؤاد أن يعمل اليوم من أجل القاعدة الشبابية من طلاب وحديثي التخرج والتعيين في هيئة التدريس بما يمكن من انتخابه عميداً ممثلا للجميع لا للصفوة القممية فقط ؟ وهل يستطيع أن يبدأ من الآن أن يشترك الجميع ـ طلابا وعمالا وأطباءا وأساتذة ـ في انتخابه عميداً لهم ؟ فليس شبابنا أقل نضجا لبلادهم من شباب الجماهيرية المجاورة . وإذا أخطئوا الاختيار مرة فسوف يتعلمون من خطئهم . وبهذه المشاركة الشبابية في صنع القرار وتحمل مسئولية تنفيذه سوف يتحرر الدكتور هاشم من ظاهرة الـ « مفيش حاجة » التي تحبط محاولاته المخلصة للإصلاح .

فليستدر إذا بعينيه إلى أسفل وليركع بجبينه على الأرض فيتحرر قلبه ليتجه إلى أعلى حيث لا فرعون ولا تفرعن . . إلى الواحد الباقي المالك القدوس الرحمن الرحيم الغفور الحليم .

وأما نحن الذين ندين للقصر العيني ونكن له كل الوفاء فسنعاونه بأن نتحرر أيضاً من الخضوع لغير الله فلا نستمر في عبادة ما عبده أجدادنا ولكن لنجتهد باحثين عن المخرج من أي باب نستطيع فتحه . أننا سنواكب الدكتور هاشم بأن نبادر دون إنتظار أن يبادر القصر العيني . فنخاوي الآب لنكبر ولا نبقى تابعين وعبئا عليه فالآب العجوز أحوج إلى أبناء يكونون رجالا من بعده لا يستمرون عيالا تابعين .

إنها مسئولية على عاتقنا في الجامعات الحديثة وفي الأزهر خاصة حيث فرضت القيادات الشبابية قيادتها وبادرت لتتحمل مسئوليتها .

ويواجهها تحدى أن تقدم الجديد لا تقلد القديم ، والظاهرة الهاشمية عليها أن تتطور ولا يغرها نجاحها الظاهرى على التعامى عن أوجه القصور وأهمها هو ما يؤرق الدكتور هاشم . ظاهرة الـ «مفيش حاجة» إننا ندعو له وندعو لأنفسنا قبله . أن يلهمنا الله جميعاً إلى الطريق القـــويم .

١٧ الملابس والهوية

عرف الإنسان الملابس حديثا . بل إن هناك حتى الآن بين البشر من لم يعرفوها وما زالوا يعيشون حياة بدائية بدونها . فالملابس ليست ضرورة حتمية ولكنها مكتسبة ضمن خواص التحضر .

وهناك أكثر من دافع وراء لجوء الإنسان للملابس ، نستطيع أن نصنفها إلى دوافع بيولوجية أساسا وأخرى نفسية إجتماعية أساسا ، مع مراعاة التداخل بين الدافعين .

١ — الدوافع البيولوجية :

(ا) الحماية من المخاطر الفيزيائية مثل الشمس والريح ، البرد . أن الانسان يملك القدرة على تكييف بيئته الداخلية بغض النظر عن البيئة الخارجية . فهو يحافظ على درجة حرارة جسمه فى مستوى واحد (درجة ٣٧ مئوية) بغض النظر عن سخونة الجو الخارجى أو برودته . فى الحر يفرز العرق من الجلد فيتبخر بما يخفض الحرارة . بينما فى البرد تتحرك العضلات أو ترتعش فتحرق الغذاء بما يولد الطاقة ويرفع الحرارة . وفى كلتا الحالتين هناك شعور مصاحب بالارهاق أو التوتر . بينما الحرارة المعتدلة تولد الشعور بالراحة . ولذلك لجأ الانسان إلى تغطية جسده كوسيلة لحمايته من التقلبات الحرارية الخارجية ، وخاصة من المؤثرات المباشرة مثل أشعة الشمس الساخنة أو الرياح الباردة أو الساخنة . فساكن الصحراء يلبسها مثلما ساكن المناطق الجليدية .

(ب) الحفاظ على الغذاء : تتخلل دورات الطبيعة فترات قحط فى الماء والغذاء وفترات وفرة ، وقد لاحظ الإنسان أن تغطية الجسد فى الجو البارد يوفر عليه الغذاء . فالجسد البارد يحتاج إلى حرق الطاقة حتى يدفأ . والطاقة تأتى من الطعام ، وكلما برد الجسد كلما احتاج إلى طعام أكثر . لذلك لجأ الإنسان على الملبس حينما أفتقد الطعام . وتصميم السروال والبطلون بسكان المناطق البارده يحافظ على حرارة الجسد . ومن جانب آخر لاحظ الانسان أن التعرض للهواء الجاف فى الصحراء بما يسرع فى تبخير العرق يزيد العطش والحاجة إلى الماء . ولذلك لجأ إلى تغطية جسده رغم الجو الحار .

(ج) الحماية من المخاطر البيولوجية : يتعرض الجسد العارى للاعتداء أو المضايقة من الكائنات الحية الصغيرة وأهمها الحشرات علاوة على الاحتكاك بالنباتات وخاصة تلك المليئه بالأشواك . والملابس تحمى الجسد من هذه الاعتداءات . ونجد تصميمها فى بعض الحالات يساعد على هش الحشرات كما هو حال الأكمام المدلاة فى الجلباب .

٢ الدوافع النفسية الاجتماعية :

(الحياء : إن الحياة الاجتماعية للانسان تتطلب تأجيل الرغبات العريزية والتحكم فيها . ويعاون المجتمع أعضاءه على ذلك بالعادات والتقاليد والقوانين. والملابس فى هذه الحالة تقوم بتغطية المناطق الشبقية فى الجسد وأهمها المنطقة التناسلية لدى الجنسين ومنطقة الصدر لدى الأنثى . ومع ذلك فإن الثنائية الوجدانية التى تكمن وراء السلوك لانسانى توجد وراء رغبة الاخفاء

التى تشكل الحياء رغبة أخرى وهى الاستعراض بهدف الاغواء . مما يغطى المناطق الشبقية قد يكون بشكل غير مباشر هو نفس ما يلفت النظر إليها . إذ نجد أن أبسط الملابس مثلا قد تتكون من حبل رفيع يلتف حول الوسط وتتدلى منه حلية تغطى المنطقة التناسلية . والحلية تقوم بوظيفة التغطية من جانب ولكن ، لأنها حلية وجذابة ، فهى تقوم بوظيفة جذب الأنظار . فإذا انتقلنا للملابس الأكثر تعقيدا فقد نجد فى بعض الملابس الحديثة من التصميمات الضيقة التى تغطى جسد المرأة فى ذات الوقت الذى تبرز فيه المحاسن بأفضل مما لو كانت عارية . فقد يكون الثدى العارى متراخيا بينما ألباسه « سوتيان » يعيد إليه شكله الناضر البارز . وعلى العكس فى حالة الملابس الفضفاضة التى تبدو وكأنها لا تقوم بهذه الوظيفة مباشرة . ومع ذلك نجد أنها تتميز بالحركة الديناميية فى التنقل من الابراز إلى الاخفاء مع الحركة ومع هفهفة الريح . ولعل « الملاية اللف » تقوم بهذه الوظيفة بشكل جيد لما تسمح به من مرونة فى الحركة ما بين التضييق والتوسع . أما فى الذكر فقد نجد العضلات يضاف إليها بروزا كما يحدث فى تبطين الأكتاف فى الملابس أو قد نجد « البنطلون » الذى يخفى العضو الجنسى الذكرى فى الواقع يزيده بروزا .

وقد يبدو أن هذه الوظيفة للملابس تتناسب بشكل خطى مطرد مع الملابس . أى أنه كلما زادت الملابس كلما يعنى ذلك أن هناك حياء ورغبة فى الاخفاء ولكن كما رأينا من قاعدة الثنائية الوجدانية فإن الدافع الظاهر يخفى وراءه دافعا كامنا فى نفس قوته وفى الاتجاه المعاكس ، فالاخفاء

يخفى استعراضا والاخفاء الشديد يخفى استعراضا شديدا . ولذلك فأن لجوء إلى الافراط فى تغطية الجسد قد يكون مدفوعا بالرغبة الجنسية الجامحة التى تداهمه ويسعى جاهدا للتحكم فيها نظرا لما قد تتعرض له من قمع وإحباط فيما لو طفت للسطح . وتزيد الظاهرة حينما يعجز المجتمع عن إشباع رغبات الأفراد بشكل مقبول . وقد نجد فى الأحلام مؤشراً صريحا لهذا المبدأ كأن تحلم امرأة لجأت إلى تغطية جسدها بشكل مفرط بأنها عاريه وسط الناس .

(ب) الأدوار الاجتماعية : تساهم الملابس فى تمييز الأدوار الاجتماعية، وهناك أدوار اجتماعية أسرية وأهمها الذكورة والأنوثة علاوة على الطفولة والرشد . كما أن هناك أدوارا اجتماعية وظيفية تتعلق بالعمل والانتاج . فى الحالة الأولى فإن الاختلاف الواضح فى الدور الجنسى ينعكس فى الاختلاف فى اللبس . إذ أن الأنثى حينما يكون دورها الأساسى هو الانجاب وتربية النشىء نجد أن الوظيفة الجنسية المميزة لها عن الذكر تأخذ الصدارة . فى هذه الحالات فإن عملها يقتصر على المنزل وحول الوظائف البيولوجية من جنس إلى طعام . ووظيفة الجنس هنا تقوم على قدرتها على إغواء رجل واحد دون إشباعه إلا حينما يلبى دورة المقابل وهو أن يوفر لها الحماية والوفرة من مصادر الأكل واللبن والسكن . ملابسها إذا تعبر عن الأغواء دون الاشباع الفورى أو المباشر والسكن المؤجل وحينما تتمكن من الحصول على ضالتها فإن المقابل الذى تدفعه هو ألا تسعى للحصول على غيره أو تشبع غيره . ولذلك يكون لبسها عند الخروج من المنزل معبرا عن كونها ليست

العرض بأن يكون لبساحتشما ، بينما فى المنزل يكون الحال مما كسا ، ولذلك يكون لبسها داخل هذا الغطاء الخارجى جذابا ومغريا . هذه وظيفة « التوب الملس » ، « والملاية اللف » والعباءة . كل هذه تغطى للخارج ما هو مسموح به للداخل .

أما الأدوار المرتبطة بالعمل والانتاج فالملابس لها وظيفة بارزة . والمهن العسكرية علاوة على الكهنة من الوظائف التى يلعب اللبس فيها دور تعريفيا هاما . فالملابس تميز بوضوح بين من هم داخل المهنة أو خارجها . وذلك لما يرتبط بهذه المهن من مسئوليات ووظائف اجتماعية واضحة . بل نجد أن داخل هذه المهن يختلف اللبس حسب مكانة الشخص فى المهنة . فجندى المطافىء غير جندى البحرية والبابا أو الامام غير القسيس أو الشيخ . ويختلف هذا الأمر بالطبع فى حالات التحول الحاد أو العنيف . فلابس الميدان تقرب مرة أخرى بين الجندى والضابط ، وانتعاش الدعوات الدينية يعيد البساطة فى الملبس مع قيم التقشف والتواضع .

(ج) الانتماء الاجتماعى : الانسان كـكائن اجتماعى ينتمى إلى جماعة ، وقد تكون الجماعة فرعية داخل جماعة أكبر . مثلا قد ينتمى إلى جماعة العسكريين أو الكهنة ، أو قد ينتمى إلى طبقة الأثرياء أو الفقراء ، على أن يكون ذلك ضمن جماعة أكبر مثل الوطن المصرى الذى قد يكون فرعا من الأمة العربية أو من الحضارة الاسلامية أو انتماءات أخرى متداخلة أو متجاورة مثل أفريقيا أو بلاد البحر الأبيض المتوسط . فى هذه

الحالة فإن الملابس قد تعبر عن الهوية الاجتماعية . فالجندى المصرى يلبس الملابس العسكرية ، ويتميز داخل هويته العسكرية بأنه جندى وليس ضابطا بنوع القماش أو التفصيلة أو بالشارات التى توضع على أكتافه أو ذراعيه. وفى هذا قد يقترب فى مظهره من جنود غير مصريين . ولكنه قد يتميز عنهم مثلا بأن يلبس « الطربوش » الذى يربطه فى هذه الحالة بالدولة العثمانية التى كانت تستند على الانتماء إلى أمة إسلامية . فتأتى ثورة وطنية مصرية تريد أن تنهض بالبلاد وترى أن ذلك يتطلب الفكاك من قيود الماضى والسعى إلى الارتباط بالحضارة الغربية الغالبة فتلقى « الطربوش » مع الرتب والألقاب التى تربط مصر بالتراث العثمانى علاوة على تمييزها بين الطبقات الاجتماعية . ثم تصطدم بذات الغرب ممثلا فى الكيان الاسرائيلى وتعود باحثة عن هوية أصلية من تراث الماضى وتحلم بالأمة الإسلامية الاصيلة وبالعدالة الاجتماعية التى كانت قد ترتبط بها آنذاك . وتجد الطاقية أكثر تعبيرا عن الطربوش . ولكن هذه العودة عودة شعبية وليست رسمية . ومن هنا يقتصر لبس الطاقية على أوقات غير رسمية ويستمر الجندى فى غير ذلك بلبسه المعتاد .

وكذلك داخل كل فئة مهنية كانت أو ثقافية نجد التمييزات الفرعية . فهناك الجلباب الريفى الذى قد يكون بسيطا ومعبرا عن الفقر أو مصنوعا من المواد الثمينة ومحلى بالزينة فيعبر عن الثراء .

وعلى مستوى الانتماء الاجتماعى الأوسع نجد الأزياء الوطنية التى تميز سكان وطن بعينه على غيره . وهى ملابس مستمدة من التراث وغير

متأثرة كثيرا بالمؤثرات الخارجية أو الطارئة . وتظهر هذه الملابس حينما تكون هناك حاجة إلى صحوة وطنية تؤكد الهوية الوطنية فى مواجهة غيرها . فى حالة الثورة الصينية الشعبية كانت الملابس تعبر عن الحاجة إلى المساواة وتأكيد قيمه العمل كجزء من ثورة عالمية ولكنها فى نفس الوقت لم تتخل عن الطابع الوطنى المميز .

دور الملابس فى أزمتنا :

المجتمع المصرى ضمن مجتمعات العالم اليوم يمر بأزمة هوية ، فهو معرض للسيل الهائل من المعلومات والأدوات والمنتجات التى تغير حياته بشكل سريع وجذرى ، وفى مواجهة صدمه المستقبل هذه يلجأ المجتمع إلى كل ما يمثل الثبات من تراث الماضى الذى صمد عبر القرون . أنه يلجأ للدين ليحتمى فيه من الضياع المترتب على أثر هذه العاصفة .

والأزمة ومحاولة الخروج منها كلاهما ينعكس على الملابس فموجة المستقبل أو السيل الغازى من الجديد والآتى من الغرب تحضر معها عبر الأثير من خلال قنوات الأعلام آخر الموديلات والتقاليع . ولأن التغيير سريع فما أيسر أن يكون التقليد من السطح إلى الباطن (وغالبا لا تسمح السرعه بالغوص فى الأعماق ، ويبقى التقليد سطحيا) . ولا يوجد سلوك أكثر سطحيه من ذلك الذى يمس الجلد أى اللبس .

أننا فى عجالتنا للتوحد مع المعتدى ، أى الغازى القادم من الشمال والغرب ،

نتشبه به مظهرا . فنلبس لبسه . بل نستورده جاهزا دون أن نكلف أنفسنا عناء صنعه .

ولكننا فى المقابل نجد رد الفعل المتوقع لمثل هذا الغزو السريع . ذلك هو التمسك بالقديم أو العودة إليه إذا كنا قد تركناه . وهى عودة قد يكون لها جانبها الشكلى السطحى أى مجرد التمسك باللبس القديم . ولكن هناك جانب أعمق وهو ما يقوم بوظيفة .

الفتاة التى تقبل على الجلباب الفضفاض وغطاء الرأس تؤكد هوية حضارية مصرية عربية إسلامية شرقية . فهى مصرية مميزة بالقدر الذى لا تقلد فيه قطرا آخر من الأقطار الشقيقة . ولكنها عربية بمعنى تأملها فى التراث العربى وإسلامية بقدر ما هى تعكس قيما دينية إسلامية .

وبالإضافة لهذا المعنى الرمزى فهناك معنى آخر وظيفى . فهذه الملابس يمكن صنعها محليا بلا اعتماد على استيراد . ولا تتغير مع أمزجة صناع « المودة » فى باريس أو غيرها . وتغنى صاحبتها عن التنويع والتلوين ناهيك عن « الماكياج » و « الكوافير » وهى عادات دخيلة ومكلفة .

ولكن الذى حدث بعد ذلك أن امتطى مسلمو الثراء الموجه . واستوعبوا شعارات الثورة وأدعوها لأنفسهم . فالبسوا الصحوة الحضارية ثيابهم وصارت الصحوة اغارة . أصبحت الظاهرة الصحية « تقليعة » وصار الزى الجاد مجرد « مودة » أخرى . وبقيت عواصمها فى باريس ولندن . يأخذون

مياهنا ويضعونها فى قوارير غربية ويبيعوها لنا فى عقر دارنا ، « فى حارة السقايين » ، وانتشرت مراكز للتسويق وسميت بلا حياء « شوبنج سنتر » لملابس المحجبات ، وأضيفت للملابس البسيطة حلى وأحجار ثمينة ، وأخذ السفه شرعية دينيه الدين منها برىء .

أما الرجال فإن طبيعة لبسهم لا تملك نفس المرونة التى لدى النساء ،ومع ذلك إستطاع بعض الشباب الجرىء أن يلفظ الزى الغربى، ولم لا ؟ فالبنطلون أو السروال وظيفته الأساسية حفظ حرارة الجسم ، إذ هو من إختراع العالم الشمالى البارد ، والزى المناسب للاجواء الحارة هو الجلباب ، إلا وهى من ذلك أن تفصيلته تناسب التكوين التشريحى للنساء حيث لا بروز فى منطقة ما بين الرجلين على عكس الرجال ، البنطلون لا يلائم الشكل الخارجى للرجال .

وفوق هذا كله نجد أن الحضارة التى تميزت أكثر من غيرها بتخصيص البنطلون للنساء والجلباب للرجال هى الحضارة الإسلامية ، ومازالت بقايا هذا موجودة فى اليمن أكثر من غيره .

أما فى مصر فإن أقرب مايمكن أن يشكل الأساس لزى وطنى هو مايستمد من الأرياف تلبس المرأة الجلباب الملون المغطى بـ « التوب » الأسود (الألوان للزوج والمنزل والأسود للمجتمع)،وكذلك يلبس الرجال الجلباب وهما قريبان فى الشكل .

والعصر الحديث الذى مازال فى طور اكتشاف المساواة بين الرجل

والمرأة (وهى مسألة بديهية لأبناء حضارة عرفت حتحبسوت ملكة منذ قرون ومازالت اليوم تضع قدسية سيدنا الحسين فى موازاة مع السيدة زينب والسيدة مريم العذراء بجوار عيسى عليه السلام وتلتشى بسماع أم كلثوم أسوة بعبد الوهاب) ، وضمن اكتشافاته هذه المودة المسماه « اليونيسكس » الفلاح المصرى يعرفها ويمارسها دون مباهاة أو إدعاء .

مازال الفلاح هو المصدر الرئيسى للقيم اسوة بالغذاء (حتى وإن تسولنا القمح اليوم لأول مرة فى تاريخنا) . إنه يتمسك بزيه باعتزاز ، ويسانده الأزهرى ، ترى هل يصمدان أمام الجبروت الدنيوى للأفندية ؟ .

١٨ - اللغة فى التدريس والحياة اليومية

مازالت الكليات العملية (الطب والهندسة والعلوم ، إلخ) تقوم بتدريس موادها العلمية باللغة الانجليزية رغم كل الثورات السياسة ضد الاستعمار . فالتبعية الثقافية والعلمية للاستعمار ما زالت تحكمنا . والتبرير لاستمرار هذا الوضع المشين على أشده . فتارة يقال إننا لا نملك إمكانية ترجمة الكتب والمراجع ، وتارة يقال إننا نريد أن نبقى على إتصال علمى بالغرب . وأكثرهم تجريحا مايقال عن قصور اللغة العربية عن التعبير العلمى بل تعويقها للتفكير المنطقى .

إن التبرير حيلة دفاعية . ولا يعنى كونه يعتمد على المنطق أنه مدفوع بالمنطق أو الموضوعية . بل الدوافع ذاتية بطبيعتها . وهذا هو ما يجب التعامل معه أساسا .

وعلى أيه حال فإن الأسباب المنطقية لها ردود منطقية وإن كان السلوك يستمر كما هو رغم هذا . مثل حال التدخين ، قليل ممن لا يجهلون مضاره ولكن أكثرهم لا يتوقفون عنه ، ترجمة المراجع ممكنة ومفيدة . هى ممكنة بواسطة الإمكانيات المالية المتاحة للأمة العربية والتى تتغنى بالوحدة وتدعو إليها وتتهم مصر بالتخلى عنها . مصر تملك الإمكانيات البشرية ، وأثرياء العرب يملكون المال اللازم والذى يضيع كثير منه فيما لا فائدة فيه ، والترجمة ليست عملية تقتصر فائدتها على مصر بل هى أفيد للعالم العربى ، فمن باب أولى أن يدفع القادرون الحساب . أما الاتصال العلمى فإن التعليم

باللغة العربية لا يعنى عدم إجادة لغة أجنبية ، والجامعات فى الخارج تتبع قاعدة إلزام الطالب بإجادة لغة أجنبية مهما كان تخصصه ، أما عن قصور اللغة العربية فهذا قد ينطبق إذا ما عجزنا عن تطوير اللغة بما يجعلها قادرة على التعبير العلمى ، واللغة تتطور طبيعيا ، ولكن المطلوب هو التطوير أى الإسراع بعملية التطور الطبيعى دون الاصطدام أو السير فى إتجاه معاكس .

إذا أضفنا إلى ذلك أن الدول العربية (ومعها الأفريقية وقليل من الدول الآسيوية) ما زالت ضمن قلة من الدول النامية الغنية التى ما زالت تدرس العلوم باللغة الأجنبية ، بل الذى يدعو للخجل إن إسرائيل الحديثه النشىء أخرجت اللغة العبرية من المتحف حيث لم تكن تستعمل إلا فى الطقوس الدينيه وحولتها إلى اللغه الرسمية للدوله وطوعتها لتدرس بها كافه علومها . وإسرائيل أبعد ما تكون فى عزلتها عن العالم أو العلم الغربى ، علاوة على ذلك فإن عزلتها عن العالم الغربى لم تمنعها من أن تعرف عن اللغه العربية وعن العرب ما لا تعرفه أكثر الدول الغربيه صداقه (أو عداءا) ، بل أكثر من بعض الدول العربيه ذاتها ، فالنا مازلنا نزدرى أنفسنا وننظر إلى الغرب بإعجاب ؟ صحيح إنه إعجاب تخفيه وراء وابل من السباب فى الاستعمار والغرب ووابل من الشعارات الوطنية الثوريه التحرريه الملتهبه ، ولكنه اعجاب ، وهو غير ندى يعكس تبعيه خاضعه خائفه وازدراء للنفس

لم يعد له وظيفه ، فهناك فرق بين نقد الذات وازدرائها ، النقد يدفع نحو الاصلاح ولكن الازدراء يبرر الاستمرار فى التخلف .

وما دام هذا موقف العلم والعلماء فمعذورون إنصاف المتعلمين وأشباه المثقفين وأصحاب البوتيكات الذين صاروا يطعمون لغتهم اليومية بألفاظ أجنبية ، يتصورون أنهم بواسطتها صاروا من الصفوة . وكأن هذه الألفاظ الأجنبية لا مرادف لها باللغة العربية أو كان هذا المرادف قاصراً عن التعبير أو دون مستوى الرقى أو الرقة المطلوبة . وينتقل هذا الاستخدام إلى وسائل الاعلام الرسمية من صحافة ومذياع وتلفازوسينما ومسرح ، وسرعان ما تستبدل « مع السلامة » بـ « باى » وينقذ الفلاح الموقف فينطقها « جاى » مجسدا سخرية الادعاء والتطلع السطحى للمدنية الغربية . ثم ندخل الكلمات التى يصعب علينا ينطقها لما تشمله من حروف غريبة مثل الـ « باء » الثقيلة والـ « ف » الناعمة وحتى الـ « ذ » التى غابت فى نطقنا العامى للعربية الفصحى فهذه كلمات مثل « شوبنج سنتر » لا مبرر لاقتباسها مادام المعنى يمكن التعبير عنه باللغة العربية مثل « مركز تسويق » بينما قد نجد عذراً فى حالة الاسم التجارى مثل « ومبى » الذى يكتب خطأ ينطق خطأ فتفتح الواو وتنعم الباء أما « أوتمان » فهذه قمة الفضيحة . فالأصل العربى « عثمان » ويكتب بالانجليزية ثم ينطق خطأ بالانجليزية « أوثمان » ثم « أوتمان » أو « أوتومان » ثم تأتى البدعة بإدعاء كتابة النطق الإنجليزى الخطأ باللغة العربية « أوتمان » . إن عكس هذه البدعة نجده فى المتمسكين بالنطق السليم لاسم « محمد » والذى يكتب بالانجليزية لينطق « مهامد » وأحيانا « ماهوميت » أو « ميهميت »

(عن النطق التركى) هؤلاء يصرون على إعادة كتابته باللغة الانجليزية بما يقربه من النطق العربى السليم بقدر الإمكان فيصير « موهاماد ». إن هؤلاء مع الأسف من مواطنى الهند وباكستان وليسوا من العرب .

إن المأساة تصفع العيون العربية كل يوم وتزعج آذانها . فالشوارع الرئيسية . وتبعتها الشوارع الفرعية والحوارى وشوارع الأرياف ، كلها سارت فى موجة التمسح بالخواجات . فسادت الأسماء الغربية المكتوبة خطأ والمنطوقة خطأ تبرز بالحروف الكبيرة المضاءة بالنيون والأنوار الكشافة وعلى الصفحات المطبوعة والشاشات .

والخطورة ليست فقط فى الأثر النفسى لمثل هذا الاعتداء على اعتزازنا بلغتنا الحبيبة وما يترتب على ذلك من إرتباك فى الهوية المصرية العربية الاسلامية ، ولكن الخطورة أيضا فى التبعات الاقتصادية لهذه البدع فالذى يقيم « شوبنج سنتر » حتى ولو كان للمحجبات لابد وأن يسعى لتأكيد التبعية الاقتصادية لمافيا « المودة » فى لندن وباريس وما تمثله من مصالح إقتصادية إستعمارية ، ولا يمكن أن يساهم حقاً فى إعادة بناء الاقتصاد المصرى المنتهك .

إن ثورة المنتج المصرى على التبعية الاقتصادية لابد وأن يسبقها ثورة المثقف والعالم . فى البداية كانت الكلمة ، وكان أول أمر نزل على النبى الأمى

هو أن « اقرأ » . وكان الكتاب الذى أنزل عليه « قرآنا عربيا » والثورة العربية المحققة للوحدة التى كنا ومازلنا نحلم بها لن يكتب لها الميلاد بدون الكلمة العربية الفصحى والفصيحة .

لقد تم الاعتداء علينا جميعا فى أعماق أنفسنا بواسطة سلاح اللغة وكاتب هذه السطور نشأ فى مدرسة داخلية إنجليزية على مدى تسع سنوات كان الكلام العربى فيها ممنوعا (ولعل فى هذا تفسيراً لا تبريراً لما بهذه السطور من أخطاء) . فصارت الانجليزيه بالنسبه له ، علاوة على كونها لغة العلم والثقافه، لغة الحديث الاجتماعى بل لغة الحب والسب والأحلام ثم اكتمل العدوان حينما تم بواسطة أساتذة مصريين فى كلية الطب القاهرية (من بينهم استثناءات مشرفه وخاصه فى الجيل القديم من أمثال المرحوم الدكتور أحمد البطراوى ، والدكتور محمد سليمان) . فأضيفت ثلاثه عشر عاما أخرى بين تعليم جامعى وتدريب ودراسات عليا ثم ختمت بست سنوات من الهجرة وراء العلم فى انجلترا وأمريكا . فعاد إلى مصر يصارع داخله من أجل أن يعيد دمج لغة الوجدان ولغة القرآن . ولغة الكلام فى مجالات العلم والتعليم والاعلام، فطلب من كلية الطب الازهريه التى تشرف بالعمل فيها أن تسمح له باستخدام اللغه العربيه فى التدريس والامتحان والابحاث . ووافق مجلس الكليه مشكورا ، ومازال يتمسك باللغه العربيه رغم المقاومه التى تأتى من كل جانب بما فى ذلك المقاومه الذاتيه الداخليه بحكم تربية السنوات الطويلة والمأساة إن أكثر المقاومه تأتى من الطلاب الذين يفاجئون بعد إنتظار سنين كانوا يحلمون فيها بالتخرج ولبس الحلل الغربيه الأنيقه والنطق بلغة

الخواجات متعالين على ذويهم، بأنهم عليهم أن يعودوا عربا ، بخيبة الأمل !
أضف إلى ذلك أن اللغه الانجليزيه تسمح بأن يحفظ الطالب أو ينقل من
المراجع الانجليزيه دون ترجمة وبالتالى دون محاولة جادة مجهدة للفهم .

إن لغتنا العربيه فى حاجه إلى جنود يسهرون على حمايتها وإلى قادة ثوار
يضربون بيد من حديد على كل مرتد عنها .

١٩ - وختاما . . الأزهر . . فيه وبه وله

منذ بدء التاريخ ومصر بلد التوحيد عرفت وحدة المعبود مع توحيدها لشمال واديها والجنوب . ووجد الفرعون فيها الكهنة والجنود ، تخطت من قبل ذلك التثليث والتعديد ولذلك لم تجد فى أى نبى ورسالته غريب . مثلما رحبت بالإسلام جديدا ، ترعرع فيها موسى واليهود واحتمى فيها عيسى من الاضطهاد هكذا مصر الرشيدة أم البلاد .

نشأ الأزهر فيها شامخا ليقود . ويحافظ على التراث بلا ركود . مثلما كان الحال من قبله توحيد ، حمل الأزهر الأمانة بصمود . كان مؤسسة بحكم طبيعة التوحيد . مشاركا فى رسم الطريق ، بلا تبعية ولا مجرد ترديد . كان يقول فى تناغم وإذا نشز اللحن أكمل التغريد . ينقل آلام الناس ويجسد الأحلام . ويرشد الحاكم فى الحرب أو فى السلام . يقود الجموع ضد الطغاة . ويحمى النظم من الغوغاء . يقود الثوار ويشور القادة .

عقلية التوحيد فى مصر لم تسمح بوجود دولة فى مقابل كهانة . وما كان فى نطاق قيصر كان أيضا فى نطاق الديانة . لادين منفصل عن دولة ولا مكان لعلمانية ولا بالتالى ثيوقراطية . ولذلك لم يعيب الأزهر أن يكون مؤسسة ضمن مؤسسات الدولة ، لا منفصلة ولا تابعه بل شريكة قوة وحول .

ومع ذلك فأن المد الحضارى الغربى الحديث جاء بمفاهيمه . وتعامل مع

الدين وكأنه بنية عقيمة . وجود منفصل وكهنوت لامنهج حياة . حاولوا أن يحدوه فى نطاق الروح و لآخرة بلا دنيا وآخرة : وتعاملوا معه كقطعة أثرية فى متحف ، أو عائق فى سبيل التمدن ورمز للتخلف .

وكدنا نخضع فى الظاهر لسلطان المادة المال والسلاح وأخذنا على السطح من الغرب ما أخذناه متظاهرين بالخضوع . هكذا مصر . متمكنة بمسكنة ، قوية برقة ، موضوعة بتواضع . ولبس منا الأفندية الحلل الغربية وتحدثنا باللغات الأجنبية . بينما تركنا القفطان والعمامة للمشايخ . وطيبنا خاطرهم بلقب الفضيلة أو السيادة أو الولاية ولكن بلا محتوى . فما زال الأفندى يمسك بذهب الخزانة وخزانة البارود . سلاح الدنيا معزول عن كلام الحق رغم شعار ثورة التسعة عشر . وشعار الوفد الذى جاء منها وراية الهلال مع الصليب التى حملها الأزهر ثائرا ضد الطغيان .

بدأ هذا التغريب منذ أن ثار المصريون ضد طغيان العثمانيين ، وحققوا لمصر استقلالا لم يخل من التأثر بغزوة نابليون . فنظروا إلى الغرب بإعجاب وإن لم يتمادوا فى التقليد فى البداية . ولكن تزايد الميل للتقليد بفتح القنال وتراكم الديون وعودة جنود الاستعمار .

ورغم حركة « الضباط الأحرار » وما احتوته لثورة شعبية لم تكتمل ورفعت لذلك شعار ثورة الثالث والعشرين فقد استمر التوجه الغالب غربى . بقيت تحكمنا عقدة الخواجات رغم التهديدات بأن نسقينهم من بحور

حمر أو بيض متوسطات تارة من دب وتارة من نسر نرتعد رغم الأصوات نميق لم يرهب أحدا فجذب الجرزان تنهشنا وجذب الديدان .

هكذا كدنا نموت . ولكن مصر العريقة الخبيرة بالموت ، تعرف بعد كل ميتة كيف تبعث من جديد . قامت بعد مسكنة وعبرت جدران الهزيمة وكادت تفيق . فبثوا السم فيها بشكل رقيق . بعد النصر آثرت مصر السلام بإبتسامه . فأقبلوا والخنجر خلف العباءة ، والسم وراء الكلام . وأغرقوها بالفساد . أمرضوها بالدواء سمموها بالكيمياء ، وطعنوها بالآلات باديه الرحمه خافية الهلاك . حلوها فترهلت عضلات . وظنوا بهذا أن العملاق مات .

قتلوا الزعامات حسرا ظنا أن الناس رعاع مصر تفرز وتلفظ الزعامات لا تصنعها قيادات . ظنوا وظننا معهم أن لا غنى لنا عن هذا أو ذاك . صنعنا أسطورة ، أقمنا صنما . ولكن لم نعبده . حصنتنا إيمانيه لا هي بتعصب ولا تفقه . إيمانية الناس البسطاء .

بعث فينا الإيمان تراثا وثقافة وشعائر ومعتقدات . أخطاء على الطريق مردنا بها مر الكرام . تعصب تارة وتحجر مرات . ولكن الفكر النير دوما يغلب ويتخطى الفترات .

نبذ الشعب المصرى العريق نزعات العنف والتطرف . ولما قتل السادات إلتزم الشعب النظام ، عبر الشعب فصيحا فى استفتاءات عن تمسك بنظام

لاشخص بالذات . نبذ الفوضى والعنف والانقراءات،مات التطرف،منتحراً في حضن غربته

والشعب إذ فعل ذلك لم يكن يرضى تماما بالضرورة عن النظام . كل ما هناك أنه لم يرض له بالوقوع منبطحا في بثور الفوضى . النقد الماذي، يتبقى والشعب يطلب ويترقب ، لابد لمؤسساته أن تنهض وتحمل أمانة قيادة التجديد والصيانة ، بلا تخبط ولا استكانة .

وهنا يأتى دور الأزهر ، الأزهر الجامعة ، والأزهر الجامع لكافة أوجه المعرفة ، فالجامعة مازالت تمثل جمعا حسابيا لعديد من الكليات لا ترتبط إلا في الإدارة الواحدة والإضافة الميكانيكية غير الدينامية لمناهج العلوم النظرية الدينية والعلوم العملية المنفصلة عنها،فهذه الأخيرة لاعلاقة عضوية لها بالأولى، بل إنها حتى لاتلتزم بأبسط أسس الشكل التى يربطها بالأولى وهى لغة التعليم ، إذ أنه مازال يستخدم اللغة الانجليزية . ومازال مكبلا فى مناهجه جملة وتفصيلا بما سار عليه الآباء والأجداد أى الجامعات الأخرى وبالذات القاهرة وعين شمس . وهى جامعات عريقه لها إحترامها . ولكن لشدة عراقتها وثقتها بنفسها فهى غير مدفوعه للتطور لتأكيد هويتها (هذا ينطبق عن القاهرة أكثر من عين شمس) وهى مازالت تسير على المناهج القديمة التى وضعت أبان أوج السيطره المباشره الثقافه الغربيه ، ولم تقدم حتى الآن بديلا محليا سواء فى محتوى المناهج أو فى شكل وسائل التعليم .

والأزهر حينما يسير على نهج القاهرة التى تسير على نهج إنجلترا

فى الثلاثينيات (باستثناء جامعة أوكسفورد التى تسير على نهج الأزهر القديم) إنما يحرم نفسه من حيوية الاتصال بجذوره وجذور الأزهر التعليمية عريقة وغاية فى الرقى وهى تكاد لا تمت بصلة لما تبقى منها اليوم والذى يعكس أكثر ما يعكس تخلفا المنهج التعليمى الغربى والتخلف العثمانى .

قد يقال أنه لا علاقة بين علوم الفقه مثلا وعلوم الطب ، ولكن الذى يتعمق فى دراسة الطب يعرف أن الطب فى النهاية لابد له عن فلسفة، الطب الذى يعالج جسداً بلا مفهوم للإنسان يجد نفسه فى النهاية لا يعالج . بل أن ما نهنا لأهمية الربط بين الروح والمادة أو بالأصح إستحالة الفصل بينهما هم علماء الطبيعة الحديثة . وإذا كان هذا هو حال علم الطبيعة فمن باب أولى أن يكون الطب كذلك ، ولكن هناك صعوبة فى أن يتخطى الأطباء حدود المعرفة المادية الحسية بحكم تدريبهم ، ولذلك فإن تعليم الطب الحديث أخذ يهتم بالعلوم الإنسانية كأساس فى التعليم الطبى .

العلوم الإنسانية تتمكن أكثر من غيرها من عبور هذه الفجوة بين الجسد والروح . ولذلك لم يكن غريبا أن يكون أول من بادر بعبور هذا الحاجز شكلا وموضوعا على مستوى كليات الطب فى مصر هو قسم الأمراض العصبية والنفسية بكليه طب الأزهر ، فقد كان الأول ، ومازال الوحيد الذى مارس التدريس والامتحان فى مواده باللغة العربية . وخرج منه أول كتاب فى الأمراض النفسية للاطفال(*) باللغة العربية منذ تسع سنوات (هناك

(*) الاضطرابات النفسية فى الأطفال . د/محمد شعلان. الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية ١٩٧٧ .

مؤلفات فى الطب النفسى للراشدين(*) كما خرج منه أول كتاب فى الأمراض العصبية(**) باللغة العربية فى العام الماضى . كما بدأ أول بحث دكتوراه فى مجال الربط بين العلاج النفسى والرياضات الروحية فى الإسلام(***) .

فالعبور هنا فى الشكل والمحتوى . فإذا أضفنا إلى الشكل أيضاً إستخدام وسائل المناقشة والتشاور بين أعضاء الفريق التعليمى (شاملا الطلاب والأساتذة) والارتباط بالممارسة والخدمة (البحث أثناء الأداء) وكذلك فى الموضوع (البحث فى الذات وربطه بالحديث) سوف نجد بوادر لنمط قد يحقق الدمج المطلوب الاجتهاد فيه فى هذه المرحلة الحرجه من تاريخ الحضارة الإسلاميه .

ومثل أى مبادرة وأى بدايه واجتهاد فهى تتعرض لمخاطر سوء الفهم وما قد يترتب على ذلك من تسفيه أو تشهير أو إتهامات باطلة . ولكن الأمل أن يأتى الأزهر الجامع حيث غابت المؤسسه البيروقراطيه ليحفظ المسار المبدع البناء ويحمى المحاولات المخلصه الجادة من الافتراءات والمعوقات الناجمه عن الجهل ، وإذا كان الجهل فى معاملات الدنيا لايحمى من العقوبه ، فإن الجهل فى معاملات الآخرة دعاة للغفران والهدايه ، فلا يسعنا وسط هذا إلا أن ندعو الله أن يغفر لمن لا يعلمون ويهديهم ويقدرنا على المرور باللغو مر الكرام .

(*) الطب النفسى المعاصر د/ أحمد عكاشه ، الانجلو ١٩٧٠ .

(**) أمراض الجهاز العصبى د/عبد اللطيف موسى عثمان أنترناشيونال بريس ١٩٨٥ .

(***) الرياضات الروحيه الاسلاميه وعلاقتها بالعلاج النفسى د/مصطفى أبو عوف رسالة دكتوراه فى الأمراض النفسية ١٩٨٠ .

الفهرس

الصفحة	الموضوع